

التاريخ السياسي لبلاد اليمامة منذ سقوط

دولة الأخيضريين حتى قيام إمارة الدرعية

منطقة الدراسة :

اليمامة بلاد مشهورة تردّد اسمها كثيراً في كتب التراث العربي التاريخية ، والجغرافية ، والأدبية .. وإذا كان الجغرافيون المسلمون قد اختلفوا في حدودها ، فالمشهور أنها جزء من إقليم نجد ، وهي تشغل حيزاً واسعاً من شرق هذا الإقليم وجنوبه ، ويبلغ طولها من أقصى شمالها إلى أقصى جنوبها نحو ٩٠٠ كيلو متر ، ويبلغ عرضها في أقصى اتساع لها نحو ٤٠٠ كيلو متر .

واليمامة تقع في وسط الجزيرة العربية وتبدو في الخريطة على هيئة شكل رباعي ، ويمكن بيان حدودها وفق ما يلي :

الضلع الشرقي : ويبدأ من نقطة التقاء رمال الدهناء برمال الربع الخالي (الجزء) ، وتمثل هذه النقطة رأس الزاوية الجنوبية الشرقية لبلاد اليمامة ، ويمتد هذا الضلع شمالاً محاذياً لحافة رمال الدهناء الغربية ، حتى التقاء نفود الثويرات بالدهناء ^(١) ، وقد عدّ

(١) ابن خميس ، عبدالله . معجم اليمامة - الرياض : مطابع الفرزدق ،

١٣٩٨هـ/١٩٧٨م ، ج ١ ، ص ١٦ .

الدكتور

فهد بن

عبد العزيز

الدامغ

* بكالوريوس في التاريخ من قسم التاريخ والحضارة بجامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية ١٤٠٠هـ .

- ماجستير في التاريخ والحضارة الإسلامية من الجامعة نفسها عام ١٤٠٥هـ .

- دكتوراه في تاريخ الجزيرة العربية من الجامعة نفسها عام ١٤١٢هـ .

- يعمل الآن وكيلاً لكلية الشريعة واللغة العربية في رأس الخيمة .

الجغرافيون المسلمون نهاية بلاد الكُرمَة آخر حدّ اليمامة جهة البصرة^(١) . أي من الناحية الشمالية الشرقية .

الضلع الجنوبي : ويبدأ من نقطة التقاء رمال الدهناء برمال الربع الخالي ، ويمتد غرباً موازياً لحافة رمال الربع الخالي الشمالية ، حتى أطراف رمال الدحي (الدبيل) الجنوبية، التي تعد الحد الفاصل بين جنوب غرب اليمامة وبلاد نجران^(٢) . الضلع الشمالي : ويمتد من التقاء نفود الثويرات بالدهناء متجهاً غرباً بميل كبير نحو الجنوب ، محاذياً لحدود بلاد القصيم الجنوبية الشرقية ، التي يفصلها عن شمال اليمامة تكوينات رمال الثويرات ، والسياريات والسرّ^(٣) . ويمكن أن تعد بلدة أضاح^(٤) المعروفة حداً لنهاية الضلع الشمالي جهة الغرب ، بحيث تمثل رأس الزاوية الشمالية الغربية لبلاد اليمامة .

الضلع الغربي : ويمتد من بلدة أضاح متجهاً جنوباً ليدخل عرض باهلة (شمام)^(٥) .

(١) الأصفهاني ، الحسن بن عبدالله . بلاد العرب : تحقيق حمد الجاسر وصالح العلي - الرياض : دار اليمامة للبحث والترجمة والنشر ، ١٣٨٨هـ ، ص ٢٥٣ - ٢٥٧ - ٢٩٣ ، ياقوت . معجم البلدان - بيروت : دار صادر ، ١٣٩٩هـ / ١٩٧٩م ، ج ٤ ، ص ١٤٥ . الوشمي ، صالح . ولاية اليمامة دراسة في الحياة الاقتصادية والاجتماعية حتى نهاية القرن الثامن الهجري - الرياض : مكتبة الملك عبدالعزيز العامة ، ١٤١٢هـ ، ص ٣١ . والكُرمَة : منطقة واسعة في شمال اليمامة تشمل سدير والزلفي والفاط .

(٢) ابن خيس . معجم اليمامة ، ج ١ ، ص ١٦ . الوشمي . ولاية اليمامة ، ص ٣١ .

(٣) ابن خيس . معجم اليمامة ، ج ١ ، ص ١٦ .

(٤) أضاح : بلدة مشهورة ، قال عنها ياقوت : «من قرى اليمامة لبني نمير ، وهي سوق وبها بناء وجماعة ناس وهي معدن البُرْم» . (معجم البلدان ، ج ١ ، ص ٢١٣) ، والبرم : هو الطين الذي يحرق وتصنع منه الأواني الفخارية .

(٥) هو ما يعرف الآن بالعرض وقاعدته مدينة القويعة .

الذي يعد حد اليمامة الغربي (والحد هنا داخل في المحدود) ، ويستمر هذا الضلع حتى يلتقي بالضلع الجنوبي عند نهاية رمال الدبيل (الدحي) ، وهذا الضلع يمثل الحد الفاصل بين اليمامة وعالية نجد^(١) .

وبهذا يتضح أن بلاد اليمامة تمتد على مساحة واسعة ، وتحيط بها بحار من الرمال من ثلاث جهات هي: الشرقية ، والجنوبية ، والشمالية . أما الجهة الغربية فيفصلها عن الحجاز قفار عالية نجد الواسعة قليلة المياه . لذلك فهي إقليم شبه منعزل وسط الجزيرة العربية يصعب الوصول إليه في تلك العصور التي لم تتطور فيها وسائل المواصلات والاتصالات لتتقهر الحواجز الطبيعية .

وتتوسط بلاد اليمامة سلسلة جبال العارض (طويق)، التي تعد بمثابة العامود الفقري لهذه البلاد .. وهي سلسلة جبال شامخة تمتد من الزلفي في أقصى شمال اليمامة ، حتى حواف الربع الخالي في أقصى جنوبها، وتقسم بلاد اليمامة إلى قسمين، شرقي وغربي.

وهذه الجبال تنحدر حافتها الغربية انحداراً شديداً ، أما جهة الشرق ، فهي تنحدر انحداراً تدريجياً ، وتسيل منها أودية كثيرة كبيرة ، يتجه أغلبها نحو الشرق ، أو الجنوب الشرقي ، ومن أشهرها، حسب تدرجها من الشمال حتى الجنوب : وادي مرخ، ووادي المشقر ، ووادي المياه، ووادي الفقي (سدير) ، ووادي قرآن (ملهم) ، ووادي حنيفة ، ووادي ماوان ، ووادي برك ، ووادي الغيل ، ووادي الهدار ، ووادي تمر^(٢) .

وهذه الأودية تقوم على جنباتها في الغالب مستوطنات زراعية ، وتنتهي في

(١) ابن خنيس . معجم اليمامة ، ج ١ ، ص ١٦ - ١٧ .

(٢) المرجع السابق ، ج ١ ، ص ١٨ - ٢١ .

روضات تستقر فيها سيول هذه الأودية . وتشتهر اليمامة بكثرة رياضها .. وهذه الروضات تكون من أفضل منابت الكلاً ومن أجود المراعي^(١) .

وحسب التقسيمات الإدارية الحديثة للمملكة العربية السعودية ، فإن إقليم اليمامة تشملها منطقة الرياض ، التي تكاد حدودها الإدارية تتطابق مع حدود بلاد اليمامة الجغرافية ، سوى الجهة الغربية حيث تمتد حدود منطقة الرياض غرباً لتشمل جزءاً من عالية نجد .

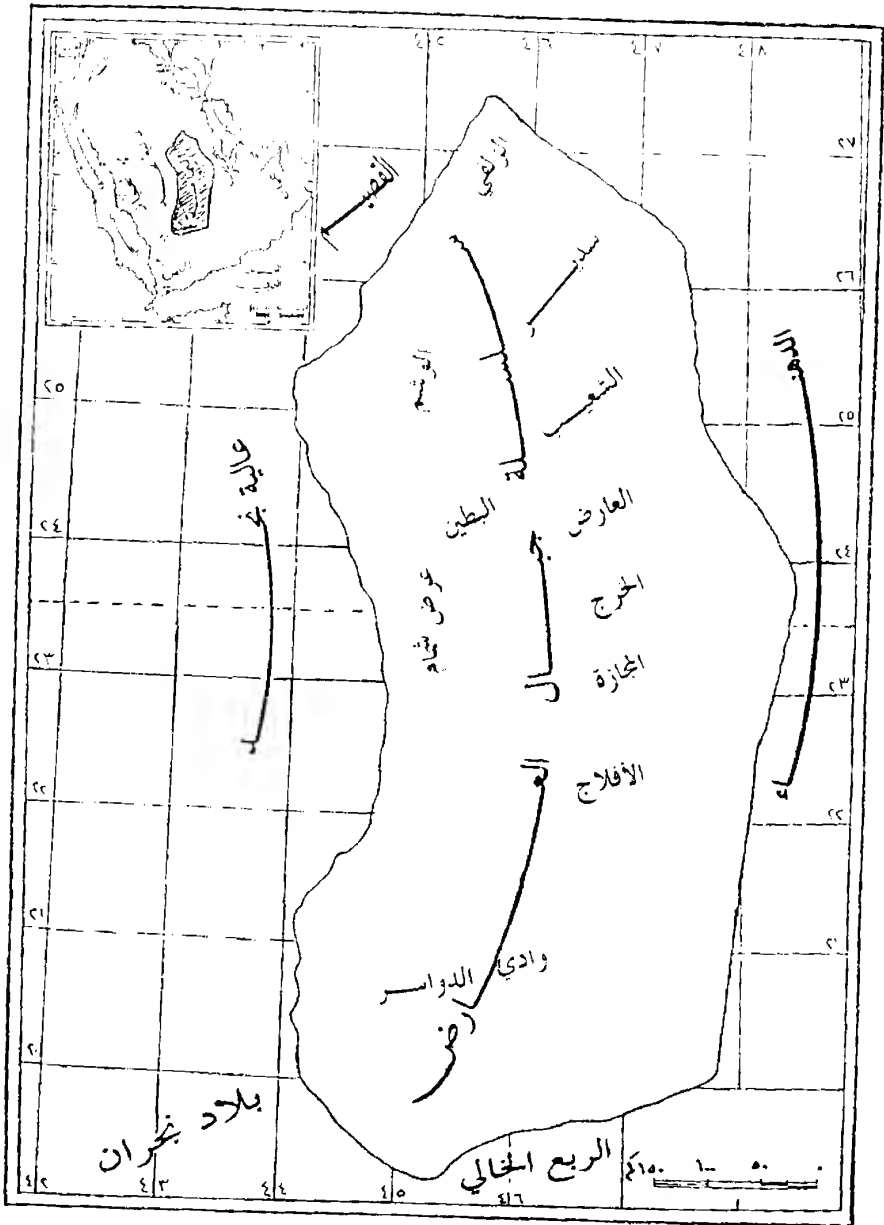
وتتضمن اليمامة عدة أقاليم ، هي حسب ترتيبها من الشمال حتى الجنوب: الزلفي ، والغاط ، وسدير ، والوشم ، والمحمل ، والشعيب ، والعارض ، والخرج ، والبطين ، والعرض ، والحوطة ، والحريق ، والأفلاج ، والسليل ، ووادي الدواسر .

وتعد بلاد اليمامة حلقة وصل بين أقاليم الجزيرة العربية ، حيث يمر بها عدد من الطرق التجارية ، أهمها : تلك التي تربط بلاد البحرين وعمان ، بالحجاز واليمن ، وكذلك طريق يربط وسط الجزيرة العربية عبر جنوب اليمامة بموانئ ظفار على بحر العرب^(٢) ، إضافة إلى أنه يمر عبر أراضيها أيضاً عدد من طرق الحاج ، وخاصة القادمين من البحرين وعمان ، ومن يأتي عن طريقهما من بلاد فارس وما يليها شرقاً^(٣) .

(١) المرجع السابق ، ج ١ ، ص ٥٠٥ - ٥١٩ . وقد ذكر خمساً وتسعين روضة في بلاد اليمامة .

(٢) كانت تصدر عن طريقها الخيول والإبل إلى الهند وغيرها ، وتعد الخيول والإبل من أهم السلع التي كانت تنتجها نجد والبحرين ، وكانت تجارتها رائجة في حقبة البحث .

(٣) الحربي ، إبراهيم بن إسحاق . كتاب المناسك وأماكن طرق الحج ومعالم الجزيرة : تحقيق حمد الجاسر - الرياض: دار اليمامة للنشر ، ١٤٠١هـ/ ١٩٨١م ، ص ٦١٥ - ٦٢٠ .



موقع بلاد اليمامة وحدودها وأقاليمها

ذو الحجة ١٤٢٦ هـ
يناير ٢٠٠٦ م

الطبعة

السنة الثامنة
العدد الثاني والثلاثون

ندرة المعلومات عن حقبة البحث و منهج الباحث في دراستها :

في بحث سابق تناولنا بالدراسة والبحث تاريخ الدولة الأخيضرية في بلاد اليمامة^(١) ، وكان من بين النتائج التي توصلت إليها تلك الدراسة أن دولة الأخيضرين عمّرت حتى أواخر القرن الخامس الهجري (٤٨٦هـ/١٠٩٣م تقريباً) ، وأن تلك الدولة مرت بمراحل قوة وضعف ، وكانت في الحقبة الأخيرة من حكمها إمارة صغيرة لا تبسط نفوذها إلا على جزء صغير في وسط بلاد اليمامة ، وفي هذا البحث سوف نتناول حلقة أخرى من تاريخ هذه المنطقة ، تتمثل في المدة الممتدة من سقوط الدولة الأخيضرية حتى قيام إمارة الدرعية سنة ٨٥٠هـ / ١٤٤٥م .

وهذه الحقبة تعد أكثر مراحل تاريخ منطقة اليمامة غموضاً ، فالمعلومات المتوافرة عنها نادرة وتفتقر إلى الوضوح والانتظام ، ولذلك يمكن القول إننا نفتقد الحد الأدنى الذي يمكن من خلاله إعطاء صورة واضحة المعالم عن تاريخ المنطقة في تلك الحقبة ، وقد عبّر عن هذا الرواد المهتمون بتاريخ هذه البلاد .

يقول الشيخ عبدالله ابن خميس متحدثاً عن تاريخ اليمامة خلال هذه الفترة : «ومن ثم عمي الكثير من حلقات تاريخها قروناً متعاقبة تحكمها القبلية ، وتسودها الفوضى والاضطراب ، حقبة عمياء مجهولة التاريخ مفقودة الأثر»^(٢) ، ويقول أيضاً : «ثم دخلت اليمامة عهداً مظلمة قروناً متعاقبة لا يعرف لها أثر ولا خبر»^(٣) .

وقد وصف العلامة الشيخ حمد الجاسر هذه الحقبة في حديثه عن تاريخ

(١) مجلة التاريخ العربي، العدد الثلاثون ١٤٢٥هـ - ٢٠٠٤م - الرياض: جمعية المؤرخين المغاربة.

(٢) الدرعية - الرياض : مطابع الفرزدق ، ١٤٠٢هـ/١٩٨٢م ، ص ٤٢ .

(٣) معجم اليمامة - الرياض : مطابع الفرزدق ، ١٣٩٨هـ/١٩٧٨م ج ٢ ، ص ٤٧٣ ، وانظر أيضاً :

المرجع نفسه ج ١ ، ص ٤٠ ، ٣٠٣ .

مدينة الرياض ، بأنها فترة مجهولة التاريخ^(١) ، وقال عن تاريخ اليمامة عامة : «ثم نجد فجوة في تاريخ البلاد من القرن الرابع إلى القرن التاسع»^(٢).

وأشار الدكتور عبدالله الشبل إلى ندرة المصادر، وشح المعلومات عن تاريخ نجد قبل قيام الدولة السعودية، وخاصة خلال الحقبة التي تلت سقوط الدولة الأخيضرية حتى منتصف القرن العاشر - وهي حقبة هذا البحث - فقال: «أما الصعوبة الأكثر عنتاً التي تواجه الدارس أو الباحث في تاريخ نجد ، فهي ندرة المصادر وربما انعدامها ، خاصة عن الفترة الواقعة بين سقوط الدولة الأخيضرية بعد منتصف القرن الخامس الهجري ومنتصف القرن العاشر الهجري ، حيث لن يجد أي مصدر متخصص يتناول تاريخ هذا الجزء من جزيرة العرب بأدنى حظ من التفصيل»^(٣) .

وقال أيضاً : «وتعترض الباحث في تاريخ نجد صعوبات كثيرة تأتي في مقدمتها قلة ما كتب عنه وندرته، وربما انعدامه مطلقاً ، ثم إن الأخبار المتناثرة عن بلاد نجد في بطون الكتب محدودة جداً ، تختفي في ضباب التاريخ مرة لتبدو مرة أخرى على هيئة أخبار غير مترابطة ، ومعطياتها التاريخية هزيلة . ولعل أكثر الفترات جذباً ، تلك الفترة الواقعة بين اضمحلال الدولة الأخيضرية بعيد منتصف القرن الخامس الهجري وقيام الدولة السعودية الأولى»^(٤) .

(١) مدينة الرياض عبر أطوار التاريخ -٠ الرياض : دار اليمامة للبحث والترجمة والنشر ، ١٣٨٦هـ ، ص ٧٧ .

(٢) المرجع السابق ، ص ٢٨٣ .

(٣) من مصادر تاريخ نجد . تاريخ ابن عباد : دراسة وتحقيق -٠ الرياض : مجلة مركز البحوث ، جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية ، العدد الثاني ، ١٤٠٤هـ ، ص ٩٧ .

(٤) مقدمة تحقيقه لكتاب الأخبار النجدية للفاخري -٠ الرياض : لجنة البحوث والتأليف والترجمة والنشر ، جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية ، ص ١٩ . وقد أورد الباحث دراسة عميقة في هذه المقدمة عن أسباب الشح في مصادر تاريخ نجد ، ص ١٩ - ٤٤ .

أما الشيخ عبدالله البسام، فقد أشار إلى عدم عناية الدول الإسلامية ببلاد نجد منذ انتقال مركز الدولة الإسلامية إلى خارج الجزيرة العربية ، ثم قال : «فمن ذلك التاريخ صارت نجد في زوايا المهملين ، وبعدت عن أمكنة التدوين والرواية ...» وقال : «وامتدت هذه الفترة القاتمة عشرة قرون ، حتى جاءت الدعوة السلفية الإصلاحية التي قام بها وجددها المصلح الشيخ محمد بن عبد الوهاب - رحمه الله تعالى - ، كل هذه الفترة التي سبقت هذه النهضة الإصلاحية والبلاد في سبات عميق وظلام دامس»^(١) .

ووصف الشيخ أبو عبد الرحمن بن عقيل الظاهري تاريخ نجد بأنه تاريخ منقطع لم يكد ينتظم إلا منذ قيام الدولة السعودية ، وقال : «إن فترة القرن الثامن والتاسع والعاشر الهجري هي الأشد غموضاً من تاريخ نجد ، لا يعلم لها في المصادر الماثورة تاريخ منتظم»^(٢) .

وقال الدكتور محمد الشويعر : «إلا أن نجداً خلال هذه الفترة وما تلاها قد أسدل عليها ستار قاتم ، حجزت بموجبه المعلومات التاريخية ، اللهم إلا نتفاً يسيرة تأتي في أماكن متناثرة»^(٣) .

وذكر عبد الرحمن السويدي أن المعلومات عن تاريخ نجد في هذه الفترة ليست متوافرة بشكل واضح ، شأنها شأن المناطق الأخرى ، وإنما هي شذرات متناثرة في

(١) علماء نجد خلال ستة قرون -٠ مكة المكرمة : مكتبة ومطبعة النهضة الحديثة ، ١٣٩٨هـ ج ١ ، ص ١١ .

(٢) انظر تقديمه لكتاب : قفار (ضمن سلسلة هذه بلادنا) ، تأليف : عبد الرحمن الفريح -٠ الرياض : الرئاسة العامة لرعاية الشباب ، ١٤٢١هـ / ٢٠٠٠م ، ص ١٥ . وقد أشار إلى هذا الأمر أيضاً في كتاب : (أنساب الأسر الحاكمة في الأحساء) ، ج ١ ، ص ٤٣ .

(٣) نجد قبل ٢٥٠ عاماً -٠ الرياض : مكتبة النخيل ، ١٤١٢هـ / ١٩٩٢م ، ص ١٠ .

بطون بعض الكتب المطبوعة والمخطوطات ، والوصول إليها يحتاج إلى بحث مضى وقراءة متأنية^(١) ، وقال في وصف هذه الفترة : «معتمة تماماً إلا من بعض الومضات الخافتة التي لا تعطي الدلالة المطلوبة»^(٢) .

أما وليام فيسي (WILLAM FACEY) فيقول عن تاريخ اليمامة في هذه الفترة : «ومع هذا فندخل في حقبة من الغموض تصل إلى ثلاثمائة سنة تقريباً ، فلا شيء معروف عن نهاية حكم بني الأخيضر ، ولا يتفق المؤرخون المسلمون حول قاعدة اليمامة بعد نهايتهم ، وإذا حدث أن اليمامة تشرذمت إلى مجموعة من البلدان المستقلة - وهو الاحتمال الأرجح - فهذه المسألة لم تذكر»^(٣) .

ولما كانت المعلومات التاريخية عن هذه الحقبة من تاريخ بلاد اليمامة قليلة جداً وغامضة ، ولا تخلو من التناقض أحياناً ، كما قرره عدد من الرواد الذين اهتموا بتاريخ هذه البلاد^(٤) ، وبذلوا في تتبعه جهوداً كبيرة ، وأمضوا في دراسته سنوات طويلة ، فإن أي نتيجة يصل إليها من يتصدى لدراسة تاريخ هذه الحقبة ، من خلال تصيد الشذرات المبعثرة ، والإفادات المبددة ، ثم الربط بينها وتحليلها واستجلاء دلالاتها واستخلاص نتائج منها - مهما صغر حجمها - يعد عملاً يستحق التقدير من جانب المهتمين بتاريخ الجزيرة العربية .

(١) الألف سنة الغامضة من تاريخ نجد - الرياض : دار السويداء للنشر والتوزيع ، ١٤٢١هـ / ٢٠٠٠م ، ج ٣ ، ص ٩

(٢) المرجع السابق ، ج ١ ، ص ٥ .

(٣) الرياض : المدينة القديمة : ترجمة عبدالعزيز بن صالح الهلابي - الرياض : مكتبة الملك عبدالعزيز العامة ، ١٤١٩هـ / ١٩٩٩م ، ص ٩٩ .

(٤) لقد سقنا أقوال هؤلاء الرواد لنؤكد للقارئ الكريم ندرة المعلومات عن تاريخ هذه الحقبة من ناحية ، ولنتلمس منه العذر من ناحية أخرى ، لعدم التمكن من إعطاء صورة واضحة وتفصيلات كافية ، ترضي طموحه ، وتشبع نهمه لمعرفة تاريخ هذه الفترة الغامضة .

من هذا المنطلق ووفقاً لهذا المنهج . سوف نحاول في هذا البحث اقتحام تاريخ تلك الفترة الغامضة، علناً نتمكن من إضافة شيء - ولو كان يسيراً - يسهم مع جهود السابقين في جلاء جانب من الغموض، أو يفتح آفاقاً لباحثين آخرين يواصلون المهمة . وسوف نتناول التاريخ السياسي لهذه المنطقة من خلال الحديث عن القوى المحلية ، ثم عن نفوذ القوى الخارجية المجاورة التي تمكنت من بسط نوع من النفوذ على المنطقة خلال تلك الفترة سواء كان ذلك النفوذ مباشراً ، أم كان غير مباشر .

أولاً - القوى المحلية في المنطقة :

في بحث سابق عن تاريخ اليمامة في عصر الدولة الأخيضرية خلص الباحث إلى أن الأخيضرين لم يحكموا بلاد اليمامة كلها في فترة قوة دولتهم، بل بقيت أجزاء منها خارج دائرة نفوذهم، أما في فترة ضعفهم - وهي الأطول في تاريخهم - فقد تقلص نفوذهم ليقصر على جزء صغير من وسط اليمامة يتمثل في إقليم الخرج . ولهذا فإن أجزاءً كبيرة من بلاد اليمامة كانت تعيش فراغاً سياسياً قبل سقوط الدولة الأخيضرية ، ومن يتأمل ما ذكره الرحالة الفارسي ناصر خسرو ، الذي مرّ بالمنطقة وأقام فيها مدة من الزمن سنة ٤٤٣هـ / ١٠٥١م يدرك بوضوح مدى الفراغ السياسي والاضطراب الأمني الذي كانت تعيشه هذه المنطقة^(١) .

وبعد سقوط الدولة الأخيضرية في أواخر القرن الخامس الهجري لم يبق كيان إقليمي منظم - فيما نعلم - يحكم بلاد اليمامة ، وفي الوقت نفسه لم يعد إليها الحكم المركزي للخلافة العباسية ، بسبب ضعف الخلافة من ناحية ، وعدم أهمية المنطقة وانعزالها من ناحية أخرى ، وبهذا أصبحت هذه البلاد كلها تعيش

(١) سفرنامه (رحلة ناصر خسرو) : ترجمة يحيى الخشاب -٠ بيروت : دار الكتاب الجديدة ، ١٩٨٣م ، ص ١٣٨ - ١٣٩ .

حالة من الاضطراب والفوضى السياسية والأمنية ، قريبة الشبه بما كان سائداً في العصر الجاهلي . فالصراع بين القوى القبلية المحلية دائم ، والنهب والسلب والقتل شائع ، والجهل والفقر والخوف يضرب بأطنابه ، وقد يكون لبعض القبائل أو القوى سيطرة نسبية بسبب قوتها في فترة من الفترات ، ثم لا تلبث قبيلة أو قوة أخرى أن تنتزع منها تلك الزعامة النسبية وهكذا . هذه صورة عامة لحالة ظلت سائدة في هذه المنطقة خلال هذه الحقبة التي امتدت أكثر من ثلاثمائة وخمسين سنة ، من أواخر القرن الخامس حتى منتصف القرن التاسع الهجري .

أما عن القوى المحلية التي ظهرت في المنطقة خلال هذه الحقبة فإن المعلومات عنها نادرة جداً ، ومن خلال تتبع ما ورد من إشارات في المصادر عن هذه القوى ، نجد أن ابن خلدون يذكر نقلاً عن ابن سعيد المغربي^(١) قوله وهو يتحدث عن بني عامر في بلاد البحرين : «ملكوا أرض اليمامة من بني كلاب ، وكان ملوكهم فيها لعهد الخمسين والستمائة بني عصفور»^(٢) ، وذكر القلقشندي مثل ذلك أيضاً^(٣).

(١) هو علي بن موسى بن عبد الملك بن سعيد المغربي . أديب شاعر ، ورحالة مؤرخ . ولد في سنة ٦١٠هـ/١٢١٣م ، وتوفي سنة ٦٧٣هـ/١٢٧٤م ، وقيل سنة ٦٨٥هـ/١٢٨٦م . زار المشرق عدة مرات ، وله مؤلفات كثيرة . (الكتبي، محمد بن شاكر. فوات الوفيات والذيل عليها ، ج ٣ : تحقيق إحسان عباس - بيروت : دار صادر، ص ١٠٢ - ١٠٦) .

(٢) ابن خلدون ، عبدالرحمن بن محمد . تاريخ ابن خلدون - بيروت : دار البيان ، ١٩٧٩م ، ج ٦ ، ص ١٢ ، ج ٢ ص ٣١٢ . وسوف نشير إلى بني عصفور لاحقاً عند حديثنا عن نفوذ القوى الخارجية في بلاد اليمامة .

(٣) القلقشندي ، أبو العباس أحمد بن علي . قلائد الجمان في التعريف بعرب الزمان : تحقيق إبراهيم الإبياري - القاهرة : دار الكتب الحديثة ، ١٣٨٣هـ/١٩٦٣م ، ص ١٢٠ ؛ وانظر أيضاً للمؤلف نفسه : نهاية الأرب في معرفة أنساب العرب ؛ تحقيق إبراهيم الأبياري - بيروت : دار الكتاب اللبناني ، ١٩٨٠م ، ص ٣٣ .

ويمكن أن يفهم من هذا النص أن بني كلاب كان لهم نفوذ وغلبة وسيطرة في بلاد اليمامة بعد الأخيضريين . وبنو كلاب هؤلاء هم بنو كلاب بن ربيعة بن عامر بن صعصعة ، من قيس عيلان من مضر . ويؤيد هذا ما ورد في نص آخر عن ابن سعيد المغربي قال فيه : «سألت عرب البحرين وبعض من حج لمن اليمامة اليوم»^(١) ؟ فقالوا : لعرب من قيس عيلان ، وليس لبني حنيفة بها ذكر»^(٢) .

وبنو كلاب كانوا يقطنون في القرن الثالث الهجري ، مناطق واسعة في القطاع الأوسط والجنوبي من عالية نجد ، وتمتد ديارهم من حدود الحجاز غرباً حتى حدود اليمامة شرقاً ، وأبرز بطون هذه القبيلة : بنو أبي بكر بن كلاب ، وبنو عمرو ابن كلاب ، وبنو جعفر بن كلاب ، وكان يغلب عليهم جميعاً طابع البداوة^(٣) .

وقد أشرنا في بحث سابق إلى أن بني كلاب كانت تربطهم صلة مصاهرة بالأخيضريين، وذكرنا أن من المرجح أنهم ساعدوا الأخيضريين في الوصول إلى اليمامة، وتأسيس دولتهم بها، ولعلهم أيضاً كانوا من أبرز القوى البدوية التي تعاونت مع الأخيضريين بعد ذلك في إحكام سيطرتهم على المناطق التي حكموها .

أما متى أصبح لبني كلاب الغلبة والنفوذ في بلاد اليمامة ، وكيف تم ذلك ؟ فالمصادر التاريخية لا تمدنا بشيء عن هذا الأمر، إلا أنه من خلال النظر في

(١) يبدو أن ذلك كان في موسم حج سنة ٦٥٠هـ/١٢٥٢م ، والمراد بقوله : «ليس لبني حنيفة بها ذكر» أي ليس لهم بها زعامة وسيادة في ذلك الوقت، وإلا فبنو حنيفة بلادهم اليمامة ، ووجودهم بها لم ينقطع ، فهم من أبرز سكانها في هذا العصر وقبله وبعده .

(٢) ابن خلدون ، تاريخ ابن خلدون ، ج٤ ، ص٢٢٥ . القلقشندي . صبح الأعشى ، في صناعة الإنشاء ، المؤسسة المصرية العامة للتأليف والترجمة والنشر ، ج٥ ، ص٦٠ .

(٣) أورد الحسن بن عبدالله الأصفهاني معلومات مفصلة عن فروع بني كلاب ، وحدود ديارهم ، وذكر مياههم . ومواردهم . انظر : بلاد العرب ؛ تحقيق حمد الجاسر وصالح العلي ، دار اليمامة للبحث والنشر والترجمة ، ص ١١٢ - ١٧٠ .

مجريات الأحداث يمكن أن نطرح احتمالين ، أحدهما : أن بني كلاب بدأت صلتهم ببلاد اليمامة من خلال التعاون مع الأخيضريين ، واستمروا في هذا التعاون حتى سقطت دولة الأخيضريين فحلوا محلهم ، أو أنهم عندما ضعف الأخيضريون نتيجة الخلافات بينهم والصراع على السلطة ، استغل بنو كلاب الأمر فأجهزوا عليهم وحلوا محلهم^(١) .

أما ثاني الاحتمالين ، فيتمثل في أن بني كلاب هؤلاء قدموا إلى اليمامة في أواخر القرن الخامس الهجري من بلاد البحرين ، ويؤيد هذا الاحتمال أن قسماً من بني كلاب كانوا قد انتقلوا إلى بلاد البحرين وتعاونوا مع القرامطة ، شأنهم في ذلك شأن بني عمومته بني عقيل بن كعب بن ربيعة بن عامر ، الذين انتقلوا من موطنهم في جنوب بلاد اليمامة إلى البحرين في أواخر القرن الثالث الهجري وأصبحوا من أبرز عناصر جيش دولة قرامطة البحرين^(٢) . فقد ذكر ثابت بن سنان الصابي^(٣) أن بني الحريش من بني عقيل كانوا هم وبنو كلاب من أبرز المناصرين لأبي سعيد الجنابي مؤسس دولة قرامطة البحرين^(٤) .

(١) هذا الأمر غير مستغرب، بل نجده في حالات أخرى كثيرة منها على سبيل المثال استيلاء بني عامر على السلطة في بلاد البحرين من العيونيين بعد أن كانوا من أتباعهم ، وانتزاع الرسولين السلطة في اليمن من الأيوبيين .

(٢) انظر : الظاهري ، أبو عبدالرحمن بن عقيل . أنساب الأسر الحاكمة في الأحساء - الرياض : دار اليمامة للبحث والترجمة والنشر ، ١٤٠٣هـ / ١٩٨٣م ، ج ١ ، ص ١٦٠ .

(٣) ثابت بن سنان بن قرة الحراني الصابي . طبيب مؤرخ . عمل عند خلفاء بني العباس (الراضي ، ثم المتقي ، ثم المستكفي ثم المطيع) . ألف كتاباً في التاريخ ، وتوفي سنة ٣٦٣هـ / ٩٧٤م . (كحالة ، عمر رضا ، معجم المؤلفين - بيروت : مؤسسة الرسالة ، ١٤١٤هـ / ١٩٩٣م ، ج ١ ، ص ٤٦٦) .

(٤) انظر : الظاهري ، أنساب الأسر الحاكمة في الأحساء ، ج ١ ، ص ١٥٩ .

وبعد أن ضعفت دولة القرامطة أصبح لأعراب بني عامر - ومنهم بنو كلاب - نفوذ وسطوة في بلاد البحرين، ولما تمكن عبدالله بن علي العيوني من القضاء على دولة القرامطة وتأسيس الدولة العيونية في بلاد البحرين سنة ٤٦٧هـ/١٠٧٥م، قطع ما كان لرؤساء بني عامر من العوائد والجرايات التي فرضوها على القرامطة، فأجمعوا على حربه، فالتقى بهم في معركة حامية الوطيس، وألحق بهم هزيمة ساحقة وشتت شملهم^(١). بعد هذه الهزيمة من المحتمل أن بني كلاب رحلوا من بلاد البحرين إلى بلاد اليمامة وأصبح لهم نفوذ وسيطرة ، وأصبحوا أبرز القوى المحلية في هذه البلاد خلال القرن السادس الهجري وأول القرن السابع .

وسواء صح أحد هذين الاحتمالين ، أم لم يصح أي منهما ، فالثابت أن النص السابق الذي نقله ابن خلدون والقلقشندي عن ابن سعيد المغربي يدل على أن بني كلاب كان لهم نفوذ وسيطرة في بلاد اليمامة في المرحلة التي تلت سقوط الدولة الأخيضرية ، حتى أقصاهم أبناء عمومتهم من بني عامر ، حين استولوا على مقاليد الأمور في البحرين ، وأسسوا الدولة العصفورية .

ومنذ مطلع القرن السابع بدأت تتشكل في المنطقة قوة محلية أخرى (متحالفة) ما لبثت أن أصبح لها مكانة وسيطرة على أجزاء واسعة من بلاد اليمامة، فبنو حنيفة سكان قلب اليمامة الأصليون^(٢) الذين تأثروا أكثر من غيرهم بسياسة

(١) ابن عبد القادر الأنصاري ، محمد بن عبدالله . تحفة المستفيد بتاريخ الأحساء في القديم والجديد - الرياض : الأمانة العامة للاحتفال بمرور مئة عام على تأسيس المملكة ، ١٤١٩هـ/١٩٩٩م ، ج ١ ، ص ١٨٣ - ١٨٤ .

(٢) كانت ديار بني حنيفة قبل قيام الدولة الأخيضرية تمتد من وادي قرآن (الشعيب) شمالاً حتى أقصى بلاد جو الخضارم (الخرج) جنوباً ، ومن حافة الدهناء شرقاً حتى نفوذ الوركعة (قنيضة) غرباً .

الأخضرين ، وفقدوا مكانتهم بسببها ؛ أخذوا يستأنفون شيئاً من نفوذهم في المنطقة - على ضعف في أول الأمر - متحالفين مع قوى أخرى .

يقول ياقوت الحموي وهو ممن عاشوا في القرن السادس الهجري ومطلع القرن السابع : «أخبرنا بدوي من أهل تلك البلاد أن الوشم خمس قرى ، عليها سور واحد من لبن^(١) ، وفيها نخل وزرع لبني عائذ ، لآل مزيد ، وقد^(٢) يتفرع منهم ، والقرية الجامعة فيها ثرمداء ، بعدها شقراء ، وأشيقر ، وأبو الريش ، والمحمدية»^(٣) .

يقول ابن فضل الله العمري عندما تحدث عن عرب الجزيرة العربية في كتابه مسالك الأبصار في ممالك الأمصار^(٤) : «عرب العارض - والعارض وراء الوشم ، والوشم هو

(١) أشار الشيخ حمد الجاسر إلى أن الصواب «على كل قرية سور» . جمهرة أنساب الأسر المتحضرة في نجد - الرياض : دار اليمامة للبحث والترجمة والنشر ، ١٤٠١هـ / ١٩٨١م ، ج٢ ، ص٥٢٥ ، وهذا صحيح ، فمن غير المعقول أن تحاط هذه البلاد بسور واحد مع تباعدها ووجود حواجز طبيعية بينها .

(٢) لعل الصواب : «ومن» .

(٣) الحموي ، ياقوت . معجم البلدان ، ج٥ ، ص٢٧٨ ، والقرى الثلاث الأولى معروفة بأسمائها حتى الآن ، أما أبو الريش والمحمدية فهي غير معروفة .

(٤) نشر ما يتعلق بقبائل العرب في القرنين السابع والثامن الهجريين في مسالك الأبصار في ممالك الأمصار ؛ بتحقيق دورتيا كرافولسكي - بيروت : المركز الإسلامي للبحوث ، بيروت ١٤٠٦هـ / ١٩٨٥م . ونشره قبل ذلك الشيخ حمد الجاسر في مجلة العرب تحت عنوان : «العرب في القرن السابع من كتاب مسالك الأبصار» ، والنص هنا من الكتاب المشار إليه مع مقارنته بما نشره الشيخ حمد الجاسر ، وإثبات ما رأينا أنه الصواب من الكلمات المحرفة لأسماء البلدان في الهامش .

الذي ينتهي إليه آل فضل^(١) إذا توسعوا في البر - وهم بنو زياد^(٢)، والجميلة^(٣)، وعرب الخرج، هم العقفان، والبرجان^(٤)، ومن بلادهم البريك والنعام^(٥).

(١) يقصد قبيلة آل فضل بن ربيعة الطائية. وكان لآل فضل نفوذ وسطوة في القرنين السابع والثامن الهجريين. وقد أسند إليهم الممالك منصب إمارة العرب، وعرفت إمارتهم بالإمارة الطائية ومركزها في بادية الشام، لكن نفوذهم كان يمتد إلى شمال نجد ووسطه.

(٢) لم ينسب ابن فضل الله العمري بني زياد هؤلاء إلى قبيلة. وقد ذكر جبر بن سيار النجدي الشاعر المشهور، أمير بلدة القصب، المتوفى سنة ١٠٨٥هـ/١٦٦٤م، في نبذة كتبها عن أنساب أهل نجد أن بني زياد من بني تميم (نبذة في أنساب أهل نجد: تحقيق راشد بن محمد بن عساكر - الكويت: مكتبة ذات السلاسل، ١٤٢٢هـ/٢٠٠١م، ص ١٠١)، ويوجد بمنطقة حوطة بني تميم قرية تسمى زياد، يرجح أنها قامت على أنقاض مستوطنة قديمة كان يسكنها بنو زياد بن العلاء بن زياد من بني هزأن من عنزة (التميمي، إبراهيم بن راشد، تاريخ حوطة بني تميم - بيروت: الدار العربية للموسوعات، ١٤٢٥هـ/٢٠٠٤م، ص ٤٤ - ٤٥) ولا يستبعد أيضاً أن بني زياد الذين أشار إليهم ابن فضل الله العمري هم من بني زياد بن العلاء من هزأن.

(٣) الجميلة لم ينسبهم ابن فضل الله العمري إلى قبيلة، وقد أشار إليهم جبر بن سيار وقال: «والجميلة من بني وائل»، والمشهور أن الجميلات من قبيلة عنزة من وائل، وأشهر مساكنهم في القرن الحادي عشر الهجري البديع في الأفلاج، وكان لهم فيها زعامة وإمارة، وقد ذكر ابن لعبون أن الجميلات في الأفلاج من تغلب وقد دخلوا في الدواسر. (انظر: نبذة في أنساب أهل نجد: تحقيق راشد بن محمد بن عساكر، ص ١٠١-١٠٢ هامش «٢»). وإذا كان الجميلة الذين ذكرهم العمري هم الذين أشار إليهم كل من جبر بن سيار، وابن لعبون فلا نعلم متى انتقلوا من العارض إلى الأفلاج.

(٤) العقفان، والبرجان. لم ينسبهم العمري إلى قبيلة، ولم نجد لهم ذكراً بهذا الاسم في الكتب التي اهتمت بأنساب أهل نجد، ولعله قد وقع فيهما تصحيف أو تحريف، وأن المراد العطيان، والرجبان، فقد ذكر جبر بن سيار أن العطيان والرجبان من بني حنظلة بن تميم، وذكر ابن عيسى في مجموع مخطوط له أن العطيان والرجبان من بني حنظلة بن تميم، وكانوا يسكنون بلاد حوطة بني تميم هم والعبادل من بني دارم من تميم أيضاً قبل قدوم آل حماد إليها. (انظر: جبر بن سيار، نبذة في أنساب أهل نجد: تحقيق راشد بن عساكر، ص ١١٨). ويلاحظ أن مواطن سكنى العقفان والبرجان الذين ذكرهم العمري ومنها بريك ونعام هي نفسها مساكن العطيان والرجبان حسب ما ذكره ابن عيسى، ومركز العطيان حالياً هو أحد المراكز التابعة لمحافظة حوطة بني تميم، ويقع في مضيق شعب ديم، ويذكر أنه كان مقر إمارة العبادل من بني تميم في عصور مضت (التميمي، إبراهيم، تاريخ حوطة بني تميم ص ٢٦).

(٥) البريك والنعام هما: بريك ونعام. انظر: ابن خميس، معجم اليمامة، ج ١، ص ١٥٩، ج ٢، ص ٤١٦.

وهما قريتان في واد منيع ، إذا حصن مدخله بسور كان أمنع بلاد الله . قال ابن عرام : وإلى هذا الوادي أزمع تنكز^(١) على الهرب حين خاف من الملك الناصر ، وعليه طريق ركب الحسا ، وعليه ممر الركب من الحسا والقطيف وفيه يقول بعضهم :

لعلك توطيني نعاماً وأهله ولو بان بالحجاج عنه طريق

عائذ بني سعد^(٢) : دارهم من حرمة إلى جلال ، والتويب^(٣) ، ووادي القرى^(٤) ، وليس (المعني) بالوادي المقارب للمدينة الشريفة النبوية - زادها الله شرفاً - ويعرف بالعارض ورماح والحفر .

قلت وحديثي أحمد بن عبدالله الواصلي ، أن بلادهم بلاد خير ، ذات زرع وماشية ، بقرى عامرة ، وعيون جارية ، ونعم سارحة ، ولأرضهم بذلك الوادي سعة وحصانة ، قال : وكان المظفر بيبرس الجاشنكير^(٥) اهتم بقصده واللاحق به والمقام

(١) تنكز : هو أحد أمراء المماليك تولى نيابة الشام في عهد السلطان الناصر محمد بن قلاوون ، وحظي بمكانة عالية لديه ، وكان محمود السيرة ، ثم تغير عليه السلطان واعتقله سنة ٧٤١هـ / ١٣٤٠م ، وقتل في معتقله في السنة نفسها . (ابن حجر ، أحمد بن علي . الدرر الكامنة في أعيان المئة الثامنة - بيروت : دار الجيل ، ص ٥٢٠ - ٥٢٨) .

(٢) عند حمد الجاسر . بنو سعيد ، وهو الصواب بدليل ما جاء في موضع آخر من كتاب مسالك الأبحار نفسه .

(٣) هكذا ورد ، وعند الجاسر ، التويم وهو الصواب ، والتويم بلد معروف باسمه حتى الآن في سدير .

(٤) لعل المراد وادي الفقعي (سدير) فهو من أكبر أودية المنطقة ولكن اشتبه الأمر على الراوي لعدم معرفته بالمنطقة .

(٥) المظفر بيبرس الجاشنكير ، هو السلطان الملك المظفر المملوكي . كان أحد كبار أمراء المماليك ، تدرج في المناصب حتى تولى السلطة مدة قصيرة لم تتجاوز أحد عشر شهراً (٧٠٨ - ٧٠٩هـ / ١٣٠٩ - ١٣١٠م) وكان ذلك بعد أن تخلى الناصر محمد بن قلاوون عن السلطنة ، لكن الناصر ما لبث أن عاد إليها وقبض على بيبرس وقتله سنة ٧٠٩هـ / ١٣١٠م . (ابن حجر ، أحمد بن علي ، الدرر الكامنة ، ج ١ ، ص ٥٠٢ - ٥٠٧) .

فيه، وأن يكون فيه كواحد من أهله، مرتزقاً من سوائهم الإبل والشاء. قال: ثم انشئ رأيه عن ذلك آخر وقت، ولو وجه إليه وجهه كان أحمد لمنتجعه، وأدنى لعوده إلى صلاح الحال ومرتجعه.

وبنو يزيد دارهم ملهم ، وبنيان^(١) ، وحجر ، ومنفوحة ، وصباح^(٢) ، والبرّة ، والعويند ، وجو .

المزايدة : دارهم البخراء، وحرمة - وهي حرمة أخرى غير التي تقدم ذكرها - وسبحة الذبيل^(٣) والحلوة ، والهزيم^(٤) ، والبريك ، والنعام ، والخرج^(٥) .

وقبل ذلك أشار ابن فضل الله العمري إشارة مهمة إلى عائد في أثناء حديثه

(١) عند الجاسر: «بنبان»، وهو الصواب، وهي بلدة معروفة لا تزال تحمل الاسم نفسه وتقع إلى الشمال من مدينة الرياض وتبعد عنها نحو ثلاثين كيلاً. (ابن خميس، معجم اليمامة، ج ١، ص ١٨٠).

(٢) عند الجاسر: «صباح» وهو الصواب ، وهي موضع بوادي حنيفة قرب حجر اليمامة فيه نخل ومزارع ومياه وقد أصبح الآن جزءاً من مدينة الرياض. (ابن خميس، معجم اليمامة، ج ٢، ص ٨٣).

(٣) عند حمد الجاسر : «وسيحة الذبيل» ، وهو الصواب ، والذبيل رملة ممتدة تبدأ من عقيق عُقيل وتذهب مشملة إلى مقابلة فوهة برك ، وهناك تلتقي أودية عرض شمام الشرقية والجنوبية وهذا الجزء منها يطلق عليه سيحة الذبيل. (ابن خميس ، عبدالله ، معجم اليمامة، ج ٢ ، ص ٤٦) .

(٤) عند حمد الجاسر : «الحريم» . والهزيم : ذكرها ياقوت وقال إنها من قرى أرض قرقرى (البطين) . (معجم البلدان ، ج ٥ ، ص ٤٠٦) . وهي غير معروفة الآن ، ويبدو أنها تقع إلى الجنوب الشرقي من مدينة ضرما .

(٥) العمري ، أحمد بن يحيى . مسالك الأبصار في ممالك الأمصار ؛ تحقيق دوروتيا كرافولسكي - بيروت : المركز الإسلامي للبحوث ، ص ١٤٩ - ١٥١ .

عن القبائل الموالية لآل فضل فقال : «وفرقه من عائذ ، وهم آل يزيد وشيخهم ابن مغماس ، والمزايدة ، وشيخهم كليب بن أبي محمد ، وبنو سعيد وشيخهم محمد العليمي ، والدواسر وشيخهم رواء بن بدران»^(١) .

ومن خلال النظر في النصوص السابقة يتضح أنها تشير إلى قوة محلية ظهرت في وسط اليمامة في القرن السابع الهجري أطلق عليها اسم عائذ ، وقد بين العمري أن كلاً من آل يزيد وآل مزيد ، والدواسر ، وبنو عائذ بن سعيد ، ينضوون تحت عائذ ، وذكر شيخ كل فئة منهم ومنازلهم .

ومن المعلوم أن آل يزيد وآل مزيد من بني حنيضة ، ولا تزال بعض الأسر في عصرنا هذا تنتمي إليهم^(٢) . أما الدواسر فهم قبيلة معروفة ترجع بعض فروعها إلى الأزد من قحطان وبعضها إلى تغلب من عدنان^(٣) .

وبنو عائذ قبيلة معروفة أيضاً ، اختلفت الآراء في الأصل الذي تنتمي إليه ، لكن أرجح الأقوال فيها أنها ترجع إلى عبدة من جنب قحطان^(٤) ، فكيف يطلق على

(١) المصدر السابق ، ص ١١٦ .

(٢) ابن عيسى ، إبراهيم بن صالح . تاريخ بعض الحوادث الواقعة في نجد ؛ تحقيق حمد الجاسر ، ص ٣٥ ، الجاسر حمد . معجم الأسر المتحضرة ، ج ١ ، ص ٢٦٢ - ٢٦٣ ، ج ٢ ، ص ٩٧٦ ، ابن خميس ، عبدالله . تاريخ اليمامة ، ج ٤ ، ص ١٨٣ .

(٣) ابن خميس ، عبدالله . تاريخ اليمامة ، ج ٤ ، ص ٥٦ - ٥٨ ، معجم اليمامة ، ج ١ ، ص ٤٤٦ .

(٤) الجاسر ، حمد . أنساب الأسر المتحضرة في نجد ، ج ٢ ، ص ٥٣٥ ، وهذا هو المشهور عند الأسر المنتمية إلى عائذ في عصرنا ، وهي أسر كثيرة ومشهورة . وقد ذكر جبر بن سيار في نبذته عن أنساب أهل نجد أن عايد من كلاب بن عامر بن صعصعة بن معاوية بن بكر ، ص ١٢٧ ، أي أنه يرى أنها عدنانية . وقد تحدث الشيخ حمد الجاسر عن نسب قبيلة عائذ اعتماداً على ما ورد عند ابن فضل الله العمري ، وغيره ، وأورد عدة آراء للأصل الذي ترجع إليه . (انظر : مجلة العرب ، المجلد الخامس ، ص ١١٥٧ - ١١٥٩) .

هؤلاء جميعاً مع اختلاف أصولهم اسم عائذ وينسبون إليها ؟
الذي نراه أن عائذاً التي ذكرها العمري ، وذكر فروعها التي أشرنا إليها هي تحالف سياسي بين فروع من قبائل متعددة ، ترجع إلى ثلاث قبائل هي : عبيدة قحطان ، وحنيفة ، والدواسر . ولعل إطلاق اسم عائذ على هذا الحلف يرجع إلى أن عائذ القحطانية كانت أقوى المتحالفين في ذلك الزمان . وظاهرة الأحلاف ظاهرة معروفة قبل هذا الزمان وبعده^(١) ، فالمتتبع لأحوال القبائل العربية يجد أنها منذ عصور الجاهلية حتى القرن السادس الهجري تقريباً الأصل فيها وحدة النسب (الانتساب إلى أب واحد) ، والامتزاج بالحلف والتناصر هو الحالة المستثناة ، ثم بعد ذلك صار التحالف هو الأصل في تكوين القبائل وخاصة تلك التي انتقلت من مواطنها الأصلية إلى مواطن أخرى^(٢) .

وبهذا يتضح أن نسبة آل يزيد وآل مزيد والدواسر إلى عائذ في المصادر المتقدمة وبعض المصادر المتأخرة التي نقلت عنها نسبة صحيحة باعتبار الحلف الذي تم بينها وجمعها ، لا باعتبار أنها ترجع إلى أصل عرقي واحد (أب واحد) .

وقد مر الرحالة المشهور ابن بطوطة ببلاد اليمامة سنة ٧٣٢هـ/١٣٣٢م وهو في طريقه من الأحساء إلى مكة ، ووصفها بقوله : «ثم سافرنا منها - يعني الأحساء - إلى مدينة اليمامة ، وتسمى أيضاً بحَجْرٍ ، مدينة حسنة خصبة ذات أنهار وأشجار ، يسكنها طوائف من العرب أكثرهم من بني حنيفة ، وهي بلدهم قديماً ، وأميرهم

(١) يلاحظ أن كثيراً من القبائل المعروفة الآن في بلاد نجد ، هي في جذورها الأولى تحالفات لا ترجع إلى أصل عرقي واحد ؛ فالدواسر مثلاً بعضهم من قحطان وبعضهم من عدنان ، وكذلك مطير وعتيبة وسبيع كلها ترجع إلى أكثر من قبيلة .

(٢) الظاهري ، أبو عبد الرحمن بن عقيل . مقدمة كتاب قفار ، تأليف عبد الرحمن الفريح ، ضمن سلسلة (هذه بلادنا) ، ص ١٢ .

طفيل بن غانم^(١) . ثم سافرت منها صحبة هذا الأمير برسم الحج^(٢) .

ومن خلال النظر والمقارنة بين النصوص الثلاثة التي أوردها كل من : ياقوت . وابن فضل لله العمري . وابن بطوطة ، يمكن أن نخرج بما يلي :

١ - عودة بني حنيفة للظهور في المنطقة منذ مطلع القرن السابع الهجري كما أشار ياقوت^(٣) . ثم تطور أمرهم حتى أصبح نفوذهم يشمل بلاداً واسعة في وسط اليمامة ممثلة في مواطن استقرار آل يزيد وآل مزيد - التي ذكرها العمري نقلاً عن الحمداني - والتي تمتد من منطقة الشعيب (ملهم) شمالاً حتى برك وسيحة الدبيل جنوباً . وهي تشمل معظم المنطقة التي كانت تسيطر عليها قبيلة حنيفة في القرن الثالث الهجري .

٢ - عودة مدينة حجر إلى الصدارة في المنطقة خلال القرن الثامن ، في ظل سيادة بني حنيفة، كما ذكر ابن بطوطة، بعد أن فقدت هذه المكانة في عهد الأخيضريين وحلت محلها مدينة الخضرمة .

٣ - عدم ذكر كل من العمري وابن بطوطة لمدينة الخضرمة يدل على اضمحلال شأنها بعد القرن السادس الهجري .

(١) لا تتوافر لدينا معلومات عن أمير حَجَر ، طفيل بن غانم ، فابن بطوطة بالرغم من أنه زاره في بلاده وسافر معه إلى مكة ، لم يبين لنا مدى اتساع نفوذه ، ولا الفرع الذي ينتمي إليه من بني حنيفة . إلا أننا نرجح أنه أحد أبرز زعماء آل يزيد الذين كانت ديارهم تشمل آنذاك منطقة العارض من ملهم حتى حدود الخرج كما ذكر العمري .

(٢) ابن بطوطة ، محمد بن إبراهيم . رحلة ابن بطوطة ، ص ٢٨٠ . ويعد ابن بطوطة شاهد العيان الوحيد - فيما أعلم - الذي زار بلاد اليمامة وكتب عنها في الحقبة التي يتناولها هذا البحث، لكنه وللأسف لم يذكر سوى هذه المعلومات القليلة عنها .

(٣) أشار ياقوت إلى آل يزيد وهم من بني حنيفة .

٤ - قدوم قبائل أخرى إلى المنطقة منها بنو عائذ بن سعيد القحطانية، وهؤلاء يرجح أنهم قدموا إلى المنطقة قبيل القرن السابع الهجري أو في مطلع هذا القرن، ومعلوم أن بلادهم الأصلية هي منطقة سرة عبيدة وما حولها^(١). ومن المرجح أيضاً أن الدواسر الذين ضمهم حلف عائذ قدموا إلى بلاد اليمامة في تاريخ مقارب. ولم يشر العمري إلى مركز استقرار الدواسر، ولكن يبدو أنهم استقروا في البلاد التي تلي منازل آل مزيد جنوباً - أي في منطقة الأفلاج والسليل ووادي الدواسر - في جنوب اليمامة، حيث عرف وادي عقيق عُقَيْل بوادي الدواسر فيما بعد نسبة إليهم، وأصبح لهم شأن وذكر في هذه المنطقة فيما بعد . وعلى أي حال فإن ما ذكره العمري عن عرب العارض يعد بالرغم من اقتضابه من أهم النصوص التي وصلتنا عن سكان اليمامة خلال هذه الحقبة، ولكن قبل أن نتجاوزه ونتبع أخبار القوى المحلية في المنطقة بعد عصره، لا بد من الإشارة إلى أمرين مهمين، أحدهما :

أن عدم ربط العمري لتلك الفروع التي ذكرها، وحدد مواطنها - مثل : بني زياد، والجميلة، وعائذ بني سعيد، وآل يزيد، وآل مزيد، والدواسر - بالقبائل التي ينتمون إليها أفقدنا معلومات مهمة، وخاصة عن تلك الفروع التي لم تسعفنا المصادر الأخرى بمعلومات عنها، مما جعل ربط تلك الفروع بأصولها أمراً متعذراً، أو يقوم على الاحتمال والاجتهاد .

أما الأمر الآخر فهو أن المعلومات التي ذكرها العمري عن قبائل بلاد اليمامة

(١) الجاسر، حمد، معجم الأسر المتحضرة في نجد، ج٢، ص٥٣٥، وهذا على الرأي المشهور في بني عائذ بأنهم من عبيدة من قحطان، أما على الرأي الآخر الذي يذهب إلى أنهم من بني كلاب بن عامر بن صعصعة فلعلهم امتداد لبني كلاب الذين أشرنا فيما سبق إلى أنهم كانوا أحد أبرز القوى في بلاد اليمامة بعد الأخيضرين .

وغيرها من قبائل الجزيرة العربية لم تكن نتيجة زيارة لهذه البلاد واطلاع على أحوالها، بل نقل هذه المعلومات عن الحمداني^(١) الذي كان يعمل بوظيفة «مهمندار»^(٢) في ديوان الضيافة لدى السلطات المملوكية بمصر ، وكان الحمداني يدوّن معلوماته عن أولئك الذين يردون إلى دار الضيافة من زعماء الأعراب . والمرجح أن قبائل كثيرة في الجزيرة العربية عامة ، وفي منطقة اليمامة خاصة ، لم يفد منها أحد على أبواب سلاطين المماليك بمصر ، إما عجزاً عن الوصول إلى تلك البلاد لبعد الشقة وضعف الحال ، أو لعدم اهتمامهم بمثل هذه الاتصالات بسبب حياة البداوة والعزلة التي كانوا يعيشونها في صحارى بلادهم أو مستوطناتها الزراعية الصغيرة النائية ، أو بسبب سوء الأوضاع الأمنية والعداء المستحكم بين القبائل وافتقار أمن الطرق الموصلة إلى تلك البلاد البعيدة ، ولهذا لم تسجل أسماءهم وأخبارهم في سجلات الحمداني ، ومن ثم لم ينقلها من جاء بعده واعتمد عليه مثل العمري، والقلقشندي، والنويري .

لكن عدم تسجيلهم لا يعني عدم وجودهم، فكثير من القبائل والبطون والأفخاذ والعشائر المستقرة أصولها في هذه المنطقة قبل عصر الحمداني، والمستمرة فيها بعد عصره، لا يعني عدم ذكره لهم أن جذورهم في هذه البلاد انقطعت، أو أن لا أصول عريقة لهم بها، فهو فيما يبدو ذكر أبرز القوى التي وصلت إليه أخبارهم، ولم يذكر

(١) هو بدر الدين أبو المحاسن يوسف بن أبي المعالي بن زَمَاح الحمداني . ولد سنة ٦٠٢هـ/ ١٢٠٥م وتوفي سنة ٦٨٠هـ/ ١٢٨٢م تقريباً . عمل مديراً للضيافة عند سلاطين المماليك بمصر ، وكان يعنى بتسجيل أنساب من يرد إلى ديوان الضيافة من زعماء قبائل العرب ، وعنه نقل من جاء بعده ممن اعتنوا بهذا الأمر مثل العمري والقلقشندي والنويري والمقريزي . (ابن حجر ، الدرر الكامنة في أعيان المئة الثامنة ، ج ٥ ، ص ٢٣١ - ٢٣٢) .

(٢) مهمندار : تعني المتصدي أو المستقبل للضيوف . وهي كلمة فارسية مكونة من مقطعين (مهمن) ومعناها ضيف ، ودار .

كثيرين غيرهم كانوا يعيشون أيضاً في المنطقة نفسها لم تصل إليه أخبارهم^(١). وعلى أي حال فإن حلف عائذ الذي أشار إليه ابن فضل الله العمري يبدو أنه ما لبث أن ضعف كحلف سياسي خلال القرن الثامن الهجري ، وإن كانت أطرافه أصبحت قوى ذات شأن في المنطقة ، كالدواسر في جنوب اليمامة ، وآل يزيد وآل مزيد في وسطها .

أما بنو عائذ ابن سعيد الذين كانوا يسكنون شمال اليمامة وخاصة منطقة سدير فقد نزحوا منها ، يدل على ذلك ما ذكره عدد من مؤرخي نجد الذين تحدثوا عن إعادة إعمار بعض بلدان منطقة سدير مثل بلدة التويم ، قال ابن لعبون : «وكانت بلد التويم قبل ذلك قد استوطنتها أناس من عايز بني سعيد بادية وحاضرة ، ثم إنهم جلوا عنها ودمرت ، وعمرها مدلج^(٢) وبنوه وذلك سنة ٧٠٠ هـ تقريباً»^(٣) .

وبلدة حرمة التي ذكر ابن لعبون أنها : «مياه وآثار ومنازل قد تعطلت من منازل بني سعيد بن عايز ، فقدم إليها إبراهيم بن حسين بن مدلج من بلد التويم وعمرها وغرسها في سنة ٧٧٠ هـ (١٣٦٩ م) تقريباً»^(٤) .

(١) السويداء ، عبدالرحمن . الألف سنة الغامضة من تاريخ نجد ، ج ٢ ، ص ٧٥ ، ٣٤٢ - ٣٤٣ .
(٢) مدلج بن حسين الوائلي : هو الجد الأعلى لأسرة آل مدلج المعروفة ومن تفرع عنها ، وقصة انتقاله من بلد أشيقر إلى بلد التويم وإعمارها لها مشهورة في كتب التاريخ النجدي . (انظر مثلاً : ابن لعبون ، حمد بن محمد ، تاريخ حمد بن محمد بن لعبون - الطائف : مكتبة المعارف ، ١٤٠٨ هـ ، ص ٩٢ - ٩٧) .

(٣) ابن لعبون ، حمد بن محمد . تاريخ ابن لعبون : ص ٩٦ ، وانظر أيضاً : ابن عيسى . تاريخ بعض الحوادث الواقعة في نجد ، ص ٣٠ - ٣١ .

(٤) ابن لعبون . تاريخ ابن لعبون ، ص ٩٨ ؛ وانظر أيضاً : ابن عيسى . تاريخ بعض الحوادث الواقعة في نجد ، ص ٣١ ، وتاريخ إعادة إعمار التويم وحرمة الذي حدده ابن لعبون يحتاج إلى إعادة نظر ودراسة ؛ لأنه يظهر منه التعارض مع ما ذكره ابن فضل الله العمري ، ولعله تم في أواخر القرن الثامن لا في أوله .

ولا تتوافر لدينا معلومات عن أسباب رحيل بني عائذ عن هذه المنطقة ولا أين اتجهوا ، ومن المحتمل أن رحيلهم كان لأسباب سياسية فربما تعرضوا لغزو من قوة أخرى ، مثل بني لام الذين كان لهم صولة وسطوة ونشاط في شمال نجد ووسطه في تلك الآونة^(١) ، أو أن ذلك كان لأسباب طبيعية اقتصادية بسبب الجفاف وغور المياه والقحط ، فالمعروف عن منطقة سدير أنها تعتمد على المياه الجوفية ، وفي حال انحباس الأمطار عدة مواسم متتالية يحدث مَحْلٌ ، وجفاف لمياه الآبار يؤدي إلى قحط ومجاعة ، وقد حدث نزوح من هذه المنطقة لهذا السبب في تواريخ تالية مثل ما حدث في سنة ٨٦٩هـ / ١٤٦٤م ، وسنة ٩٣٩هـ / ١٥٣٢م^(٢) ، وسنة ١١٣٦هـ / ١٧٢٤م^(٣) .

وقد يكون رحيلهم بسبب ضعفهم نتيجة انحلال رابطة الحلف الذي جمعهم مع القوى الأخرى في المنطقة وهم آل يزيد وآل مزيد والدواسر ، ولا يستبعد أن هذه العوامل مجتمعة كانت وراء رحيلهم .

أما عن الجهة التي قصدتها بنو عائذ بعد رحيلهم من سدير فنرجح أنها منطقة الخرج، التي أصبح لهم شأن فيها في حقبة لاحقة على حساب آل مزيد .

وبعد رحيل بني عائذ نجد أن قوى أخرى حضرية وبدوية حلت محلهم في شمال اليمامة ، فقد حلت بعض الأسر الحضرية في المستوطنات الزراعية التي كانت بيد بني عائذ فأعادت إعمارها ، أو أسست مستوطنات جديدة في المنطقة ،

(١) الجاسر ، حمد . معجم الأسر المتحضرة في نجد ، ج ٢ ، ص ٧٤٥ - ٧٥١ ، ابن خميس ، عبدالله . الدرعية ، ص ٧٢ - ٧٣ .

(٢) ابن بسام ، عبدالله بن محمد . تحفة المشتاق في أخبار نجد والحجاز والعراق ، نسخة مخطوطة بخط نور الدين شريعة ، ص ١٩ ، ٤١ .

(٣) الفاخري ، محمد بن عمر . الأخبار النجدية : تحقيق عبدالله الشبل ، ص ٩٨ - ٩٩ .

مثل آل مدلج من بني وائل الذين أعادوا إعمار بلدة التويم ، وأسسوا بلدة حرمة^(١) ، وآل مزروع من بني تميم الذين أسسوا بلدة روضة سدير^(٢) ، كما أن بلدة جلاجل أعيد إعمارها في الفترة نفسها^(٣) .

أما القوى البدوية فيبدو أن قبيلة بني لام الطائية بفروعها الثلاثة ، آل مغيرة ، وآل فضل (الفضول) ، وآل كثير حلت محل بني عائذ في السيطرة على بوادي شمال اليمامة ووسطها^(٤) ، ثم ما لبثت هذه الفروع أن أصبح كل منها قبيلة مستقلة ، ونشبت بينهم النزاعات والحروب^(٥) ، فضلاً عن صراعاتهم مع القوى البدوية الأخرى في المنطقة مثل قبيلة الدواسر ، ثم مع قبيلة عنزة التي أخذت تنافس القبائل الأخرى على النفوذ في بلاد اليمامة منذ منتصف القرن التاسع الهجري^(٦) .

(١) ابن لعبون ، تاريخ ابن لعبون ، ص ٩٦ - ٩٨ .

(٢) الدامغ ، أحمد . روضة سدير عبر التاريخ - الرياض : مطابع الجاسر ، ١٤٢١هـ ، ص ٤٤ .

(٣) ابن خميس . معجم اليمامة ، ج ١ ص ٢٧٣ . ويلاحظ أن هناك أسراً حضرية أخرى في إقليم سدير والوشم كانت تحكم مستوطنات موجودة قبل هذا التاريخ ، واستمرت في هذا العصر ، مثل بلدة الداخلة ، والحوطة في سدير ، وأشيقر ، وشقراء ، والقصب ، وثرمداء في الوشم .

(٤) ورد في كتاب إمتاع السامر بتكملة متعة الناظر ، المنسوب إلى شعيب بن عبد الحميد الدوسري: أن قبائل نجد بزعمامة بني لام دخلت عسير سنة ٧٨٥هـ / ١٢٨٣م ، واحتلت بلدة بيشة ، وتوغلت في بلاد شهران ، ثم تمكن أمير عسير آنذاك من استعادة بيشة ، بعد معارك مع القبائل النجدية . (إمتاع السامر . دار الملك عبدالعزيز ١٤١٩هـ / ١٩٩٨م ؛ تحقيق محمد الحميد وعبدالرحمن الرويشد ، ص ٧٤ - ٧٥) . ولكن لا بد من الإشارة هنا إلى أن هذا الكتاب مرجع حديث ، ولا يوثق بما ورد فيه من أخبار ، لكثرة ما حواه من افتراءات ومزاعم ، وللشك في حقيقة مؤلفه أو مؤلفيه ، وقد تصدى الباحث الشيخ أبو عبدالرحمن بن عقيل الظاهري لبيان حقيقة نسبة هذا الكتاب لشعيب الدوسري ، وما ورد فيه ، في دراسة نشرت ملحقاً بطبعة الكتاب المشار إليها ، ص ٥٠٥ - ٥٤١ .

(٥) انظر : ابن بسام ، تحفة المشتاق ، ص ١٢ - ١٣ .

(٦) المصدر السابق ، ص ١٢ - ١٥ .

هذا عن بني عاتذ في شمال اليمامة . وأوضاع تلك المنطقة بعد رحيلهم منها . والقوى الحضرية والبدوية التي حلت محلهم فيها . أما في وسط بلاد اليمامة حيث منازل آل يزيد الحنفيين في إقليم العارض التي كانت تمتد - في أواخر القرن السابع ومطلع القرن الثامن - من ملهم شمالاً حتى حدود الخرج . كما ذكر ابن فضل الله العمري ، فيبدو أن نفوذهم فيها أخذ يضعف بعد ذلك بمرور الزمن ، وأخذت رقعة بلادهم تتقلص ، وخاصة حين ظهرت بجوارهم قوى أخرى منافسة ، ومنها قوة الدروع الذين ينتمون أيضاً إلى بني حنيفة^(١) ، وكان زعيمهم المعروف بابن درع^(٢) ، يسيطر على حجر والجزعة^(٣) وما حولهما ، قبيل منتصف القرن التاسع الهجري ، وهو الذي استدعى قريبه مانع بن ربيعة المريدي - الجد الأعلى لأسرة آل سعود - زعيم أسرة المردة التي كانت تقطن بلدة تدعى الدرعية بقرب مدينة القطيف بإقليم

(١) ابن سيار ، جبر . نبذة في أنساب أهل نجد ، ص ١٢٦ .

(٢) لم تذكر مصادر تاريخ نجد المتقدمة ، مثل ابن لعبون ، والفاخري ، وابن بشر ، اسم ابن درع هذا ، وقد ذكر مقبل الذكير أن اسمه علي بن درع ، وذكر خالد السليمان أن اسمه عيسى بن علي الدروع . (معجم مدينة الرياض ص ٢٤٢) . أما راشد بن عساكر فقد ذكر في تعليقاته على ما ذكره جبر بن سيار في نبذته عن أنساب أهل نجد ، أن ابن درع المشار إليه هو عبدالمحسن بن سعيد الدرعي ، أو والده سعيد ، واعتمد في ذلك على قصائد للشاعر العامي المشهور جعيثن اليزيدي الحنفي ، مدح فيها عبدالمحسن بن سعيد ، وفيها ما يفيد أنه كان أميراً لحَجَر . (انظر : نبذة في أنساب أهل نجد ، ص ١٢٨ - ١٣٠) . والشاعر جعيثن اليزيدي كان معاصراً لمقرن بن زامل الجبري حاكم الدولة الجبرية في البحرين الذي قتل في مواجهة مع البرتغاليين سنة ٩٢٧هـ / ١٥٢١م ، وبناء عليه لعل الأرجح أن سعيد الدرعي هو الذي كان معاصراً لمانع بن ربيعة وليس ابنه عبدالمحسن .

(٣) الجزعة بكسر الجيم ، وإسكان الزاي ، وفتح العين : بلدة في وادي حنيفة تقع إلى الجنوب من مدينة حَجَر (الرياض) ، وهي الآن منطقة زراعية في أطراف مدينة الرياض الجنوبية بين بلدة المصانع والمنصورية . (ابن خميس ، معجم اليمامة ، ج ١ ، ص ٢٧١ - ٢٧٢) .

البحرين ، وتنتمي هي الأخرى إلى بني حنيفة^(١) ، وتربطها صلة قرابة بالدروع .
ولما قدم مانع وأبناؤه وأسرتهم إلى بلاد اليمامة منحه ابن عمه ابن درع جزءاً
من المنطقة التي كان يسيطر عليها ، ممثلاً في الملبيد وغصيبة (نواة مدينة
الدرعية) ، وهذا الموقع يمثل الحد الشمالي الفاصل بين مناطق نفوذ ابن درع وأبناء
عمه الآخرين آل يزيد ، الذين كان على خلاف وتنافس معهم ، فأسس مانع في هذا
الموضع بلدة جديدة في سنة ٨٥٠هـ/١٤٤٦م أطلق عليها اسم الدرعية^(٢) ، ما لبثت
أن أصبحت بعد ذلك من أهم مدن بلاد اليمامة ، وقامت فيها إمارة توارثها أبناء
مانع وأحفاده ، وكانت نواة الدولة السعودية الأولى التي قامت في عام
١١٥٧هـ/١٧٤٤م على يد الإمام محمد بن سعود .

وفي الوقت الذي استدعى فيه ابن درع ابن عمه مانع بن ربيعة ، كان آل يزيد
قد باعوا جزءاً من المنطقة التي بقيت في أيديهم إلى حسن بن طوق بن سيف
التميمي - جد أسرة آل معمر - والمنطقة المباعة تمتد من الجبيلة إلى موضع
حريملاء بما فيها موضع بلدة العيينة التي أعاد حسن بن طوق إعمارها في السنة
نفسها التي أسست فيها الدرعية^(٣) ثم ما لبثت هي الأخرى أن أصبحت من أهم
مدن منطقة اليمامة ، وظهرت بها إمارة - عرفت بإمارة آل معمر - تعد إحدى أقوى
الإمارات المحلية في المنطقة حتى قيام الدولة السعودية الأولى .

ولعل بيع آل يزيد لهذه المنطقة الواسعة يؤكد ضعفهم واضطراب أمرهم

(١) ابن سيار ، جبر . نبذة في أنساب أهل نجد ، ص ١٢٦ . ويعد جبر بن سيار أقدم مصدر -
فيما أعلم - ذكر أن المردة من بني حنيفة .

(٢) ابن بشر ، عثمان . عنوان المجد في تاريخ نجد : تحقيق عبدالرحمن بن عبداللطيف آل
الشيخ - الرياض : دار الملك عبدالعزيز ، ١٤٠٣هـ/١٩٨٣م ، ج ٢ ، ص ١٣ - ١٤ .

(٣) المصدر السابق ، ج ٢ ، ص ١٤ ، ٢٩٦ - ٢٩٧ .

وتقلص مناطق نفوذهم . بحيث أصبحت في منتصف القرن التاسع الهجري محصورة في منطقة ضيقة بين الدرعية والعيينة^(١) .

هذا عن آل يزيد والقوى المحلية التي ظهرت إلى جوارهم في إقليم العارض . أما آل مزيد الذين كانوا يسيطرون في أواخر القرن السابع الهجري ومطلع القرن الثامن على منطقة الخرج وما يليها حتى حدود الأفلاج ، فإن مصيرهم لم يكن أحسن حالاً من آل يزيد فيما يبدو ، فرغم أن المصادر لا تمدنا بمعلومات مباشرة عنهم ؛ إلا أن عدم ذكرهم والإشارة إلى وجود بني عائذ باعتبارهم قوة فاعلة في منطقة الخرج في منتصف القرن التاسع وما بعده^(٢) ، يدل على أن بني عائذ حين انتقلوا من شمال اليمامة ، حلوا بمنطقة الخرج وأقصوا آل يزيد عنها ، أو أنهم أخضعوهم لسلطتهم فأصبحوا من أتباعهم .

أما أقصى جنوب بلاد اليمامة من منطقة الأفلاج حتى حدود الربع الخالي ، فيفهم مما ذكره ابن بسام في حديثه عن غزوات الجبور لبلاد نجد ، وعن الغزوات والوقائع التي دارت رحاها بين قبائل بلاد اليمامة في منتصف القرن التاسع الهجري^(٣) ، أن الدواسر كانوا أبرز القوى في تلك الجهات ، وكانت لهم السيطرة والنفوذ فيها في ذلك الوقت .

وخلاصة القول : إن إمعان النظر في المعلومات المتوافرة عن القوى المحلية في بلاد اليمامة في منتصف القرن التاسع الهجري (منتصف القرن الخامس عشر الميلادي)، يمكننا من الخروج بتصور عن هذه القوى من حيث طبيعة الحياة

(١) المصدر السابق ، ج ٢ ، ص ١٢ - ١٤ . وقد تمكن بعد ذلك أمير الدرعية موسى بن ربيعة بن مانع بن ربيعة من القضاء على ما بقي من نفوذ آل يزيد والسيطرة على بلادهم .

(٢) انظر : ابن بسام . تحفة المشتاق ، ص ١١ - ١٢ .

(٣) انظر : المصدر السابق ، ص ١١ - ٢٨ .

الاجتماعية والاقتصادية التي كانت تعيشها ، وتوزيعها الجغرافي على خريطة المنطقة، يتمثل فيما يلي :

أ - قوى حضرية مستقرة في مستوطنات زراعية ، ويغلب على نشاطهم الاقتصادي ممارسة الزراعة والأعمال المرتبطة بها ، وهذه المستوطنات تتكون في الغالب من بلدة واحدة فقط ، وفي حالات قليلة من عدة مستوطنات صغيرة في منطقة ضيقة ، وتحكم كل مستوطنة أسرة مستقلة ، ومن أبرز الأمثلة على ذلك : آل يزيد في الوصيل والنعمية ، والدروع في حَجْر وما حولها ، والمردة في الدرعية ، وآل معمر في العيينة ، وآل مدلج في التويم ، وحرمة ، وآل مزروع التميمي في روضة سدير ، والعناقر في ثرمداء ، والوهبة في أشيقر^(١) .

ب - قبائل تجمع بين طابعي البداوة ، والاستيطان الزراعي - لبعض بطونها - حول مصادر المياه الثابتة^(٢) ، مثل بني عائذ في منطقة الخرج ، والدواسر في الأفلاج ، والسليل ، ووادي الدواسر .

ت - قبائل يغلب عليها الطابع البدوي ، وتمارس الرعي وتربية الإبل والماشية، مثل آل فضل ، وآل مغيرة ، وآل كثير وكلهم ينتمون إلى بني لام ، وسبيع ، وعنزة . وهذه القبائل غير مستقرة تنتقل في أرجاء المنطقة طلباً لمساقط الغيث ومنابت الكلاً ، وموارد المياه ، لذلك يصعب تحديد مواطن محددة لها ، كما أن مناطق تحركها تتداخل في أحيان كثيرة بحيث نجد أن المنطقة الواحدة تستفيد منها

(١) يلاحظ أن أغلب هذه القوى المتحضرة تنتمي إلى قبيلتي حنيفة ، وتميم : وهما من أقدم قبائل المنطقة تحضراً ، وأغلب هذه الأسر حكمت مستوطنات تقع في المناطق التي كانت تستقر فيها القبائل التي تنتمي إليها في عصور سابقة .

(٢) مثل العيون ، والأودية التي تجري فيها السيول والمياه الجوفية القريبة .

أكثر من قبيلة . ولكن بالرغم من ذلك يمكن تحديد مناطق تركز كل قبيلة من القبائل المشار إليها على النحو التالي :

آل فضل في سدير وما يليه من إقليم الوشم، آل مغيرة في غرب إقليم الوشم وما يليه من عالية نجد، آل كثير في وسط العارض وجنوبه، سبيع في شرق العارض وأطراف الدهناء ، أما عنزة فقد أخذ نفوذها يمتد منذ ذلك التاريخ إلى شمال بلاد اليمامة ووسطها على حساب القبائل الأخرى وخاصة فروع بني لام.

ثانياً : نفوذ القوى الخارجية :

يعد إقليم البحرين^(١) أقرب المناطق إلى بلاد اليمامة ، وأكثرها اتصالاً بها اقتصادياً وبشرياً وجغرافياً ، وقد كان لهذا أثره على العلاقات السياسية بين الإقليمين منذ وقت مبكر ، فقد كانا يجمعان غالباً تحت سلطة والٍ واحد عندما كانا ولايتين من ولايات الخلافة العباسية ، وبعد ظهور الدول الإقليمية المستقلة فيهما استمرت هذه الصلة السياسية ، فدولة قرامطة البحرين التي قامت في إقليم البحرين في أواخر القرن الثالث الهجري تطلعت إلى بسط نفوذها على بلاد اليمامة منذ عهد مؤسسها أبي سعيد الجنابي ، وكان لها ذلك حقبة من الزمن .

وخلال مدة بحثنا هذا نجد أن الدول الأخرى التي تعاقبت على حكم البحرين بعد القرامطة سارت في الاتجاه نفسه ، وحاولت مدّ نفوذها المباشر أو غير المباشر إلى بلاد اليمامة ، وفيما يلي بيان لذلك .

١ - نفوذ الدولة العيونية :

بعد سقوط دولة القرامطة سنة ٤٦٧هـ / ١٠٧٥م على يد عبد الله بن علي

(١) إقليم البحرين يشمل المنطقة الشرقية من المملكة العربية السعودية وقطر والبحرين والإمارات والكويت حالياً.

العيوني ، وبمساعدة الخلافة العباسية ممثلة في السلاجقة ، ظهرت في البحرين الدولة العيونية ، وأصبحت من أقوى الدول التي حكمت بلاد البحرين وأوسعها نفوذاً ، وخاصة في أزمنة وحدتها وقوتها ، وقد استمرت في الحكم مدة قاربت مئة وسبعين عاماً (٤٦٧ - ٦٣٦هـ / ١٠٧٥ - ١٢٣٩م) ، وارتبطت بعلاقات جيدة مع الخلافة العباسية في معظم مدة حكمها^(١) .

وما يهمنا هنا علاقة هذه الدولة ببلاد اليمامة ، والمعلومات عن هذا الأمر قليلة لا تعدو إشارات وردت في ديوان الشاعر علي بن المقرب العيوني^(٢) ، الذي يعد أبرز مصدر لتاريخ دولة العيونيين ، وأخبار حكامها ، ومآثرهم^(٣) ، فقد ورد في ديوانه إشارات مهمة إلى وقائع وحروب خاضها حكام الدولة العيونية مع القوى القبلية في نجد وشمال الجزيرة العربية .

(١) آل خليفة ، عبدالله بن خالد ، وأبا حسين، علي بن عبدالرحمن . دولة العيونيين في البحرين: الكتاب السنوي الأول ، الأمانة العامة للمراكز والهيئات العلمية المهتمة بدراسات الخليج العربي والجزيرة العربية -٠ الرياض : دار الملك عبدالعزيز ، ١٤٠١هـ / ١٩٨١م ، ص ٤١-٧٢ .

(٢) ابن المقرب شاعر من أبرز شعراء الجزيرة العربية ؛ ينتمي إلى الأسرة العيونية . ولد في بلدة العيون بالأحساء سنة ٥٧٢هـ / ١١٧٦م ونشأ بها . زار بغداد ومدح الخليفة العباسي الناصر لدين الله وغيره . أغلب شعره في الفخر بأسرته ومدح أمراء الدولة العيونية وذكر مآثرهم والأعمال التي قاموا بها . توفي سنة ٦٣٠هـ / ١٢٢٢م وتجدر الإشارة هنا إلى أن ابن المقرب له صلة قوية ببلاد اليمامة ، فوالدته من بني حنيفة ، ويبدو أنه عاش فترة من صباه في بلاد اليمامة وقد أشار إلى هذا بقوله :

لله أيام الصبا إذ دارنا حَجَرُ القرى ولنا يا جلة معهد

وحَجَرُ : هي قاعدة بلاد اليمامة ، وإجلة بلدة في اليمامة . (انظر : الخضير ، علي . علي ابن المقرب العيوني حياته وشعره ، مؤسسة الرسالة ، ١٤٠١هـ / ١٩٨١م ، ص ٦٦ - ٦٩ ، العمران ، عمران . ابن مقرب حياته وشعره -٠ الرياض ، ١٣٨٨هـ / ١٩٦٨ ، ص ١٣ - ٢٩) .

(٣) العمران . ابن مقرب حياته وشعره ، ص ١١٤ - ١٥٣ .

ومن أبرز حكام الدولة العيونية الذين أشاد بهم ابن المقرب وفاخر بأفعالهم محمد بن أحمد بن أبي سنان الذي حكم خلال الفترة من (٥٨٧ - ٦٠٥ هـ/ ١١٩١ - ١٢٠٨ م) ، وبلغت الدولة العيونية في عهده أوج قوتها ، وبلغ نفوذها أقصى اتساعه . بحيث امتد ليشمل نجداً ، وأجزاء من عمان ، وأطراف بادية الشام . وأسند إليه الخليفة العباسي الناصر لدين الله (٥٧٥ - ٦٢٢ هـ/ ١١٧٩ - ١٢٢٥ م) خفارة الحاج ، منذ خروجهم من بلاد العراق حتى وصولهم إلى مكة ، وعودتهم منها ، وقرر له الخليفة أعطيات سنوية مقابل ذلك^(١) ، ولقبه بزعيم الأعراب .

يقول ابن المقرب في ذلك :

ومال أمير المؤمنين بوّده إليه وسماه زعيم الأعراب
حمى البر من حد العراق فحازه إلى الشام واستولى على حد ناعب^(٢)
ويقول أيضاً :

منا الذي كل عام بالعراق له رسم سنّي إلى أن ضمّن الرّجما^(٣)

ومعلوم أن طريق الحاج العراقي يمر عبر نجد وحمايته تتطلب السيطرة على القبائل القاطنة بنجد .

ويبدو أن ما حققه الحاكم العيوني من مكانة واتساع نفوذ ، أغاض أمراء إمارة عرب آل فضل الطائية التي كانت تسيطر آنذاك على بوادي الشام الجنوبية وشمال

(١) آل عبدالقادر . تحفة المستفيد ، ج ١ ، ص ١٨٩ .

(٢) ديوان ابن المقرب : تحقيق عبدالفتاح الحلو - الأحساء : مكتبة التعاون الثقافي ، ١٢٨٣ هـ/ ١٩٦٣ م ، ص ٥١ ، وبنو ناعب ، أو النعب : قوم من قضاة في عمان يقطنون بلاد الأجل من أعمال نخل ، (السيابي ، سالم بن حمود ، إسعاف الأعيان في أنساب أهل عمان ، ص ١٦٦ - ١٦٧) .

(٣) ديوان ابن المقرب ، ص ٥٤٩ ، والرّجما جمع رَجَمَ وهو القبر .

بلاد نجد ويمتد نفوذها إلى إقليم الوشم ببلاد اليمامة^(١)، فقررروا مهاجمة حاج العراق أثناء عبورهم لنجد نكاية بالحاكم العيوني ، ولتأكيد سيطرتهم على هذه البلاد ، وعلم الخليفة الناصر بذلك فأرسل إلى الأمير محمد بن أحمد بن أبي سنان وأخبره بهذا الأمر وطلب منه التصدي لهم ، فجمع عرب البحرين ونجد ، وانضم إليه بعض عرب العراق من بني المنتفق وخفاجة ، وسار محمد بن أحمد بجيشه والتقى بجيش قبائل طيء وزبيد ومن انضم إليهم من عرب الشام في لينة^(٢) الموضع المعروف شمال نجد ، ودارت بين الطرفين معركة حامية الوطيس في سنة (٥٩٨هـ/ ١٢٠١م) هزمت فيها قبائل طيء وزبيد وقتل بعض زعمائهم واستسلم آخرون ، وتعبق الأمير العيوني من فرّ منهم حتى اضطروا إلى الالتجاء إلى ضريح الحسين بن علي (رضي الله عنه) في كربلاء فحاصروهم فيه وكتب إلى الخليفة الناصر يخبره بذلك ، فأرسل الناصر من تسلمهم^(٣) .

وقد صور ابن المقرب هذه الأحداث في قصيدة طويلة^(٤) منها قوله :
وفي لينة أردى شغاميم طيًّا جهاراً ولون الجوّ بالنّقع حائل^(٥)
عشية لا يلوي عنان جواده حمى والعذارى دأبهن التعاول

(١) ابن فضل الله العمري . مسائل الأوبصار ، ص ١١٦ .

(٢) لينة : مورد مياه مشهور . يقع في الشمال الشرقي لبلاد نجد ، وهو أحد منازل طريق الحاج العراقي . (الجاسر حمد . المعجم الجغرافي لبلاد العربية السعودية ، شمال المملكة ، ج ٢ ، ص ١١٦٧) .

(٣) ديوان ابن المقرب ، ص ٥٤٨ (هامش) ، آل عبدالقادر ، محمد . تحفة المستفيد بتاريخ الأحساء القديم والجديد ج ١ ، ص ١٨٩ - ١٩٠ . العماري ، فضل . ابن مقرب وتاريخ الإمارة العيونية في بلاد البحرين ، ص ١١١ - ١١٢ .

(٤) ديوان ابن المقرب ، ص ٣٥٤ - ٣٥٩ .

(٥) شغاميم : جمع شغوم وهو الطويل المليح ، النقع : الغبار .

غدا مثل ما راح الظليم يحثه على الجري ليل قد أظلم ووابل^(١)
 فإن ينج من أسيافه فلقد نجا وفي قلبه خبل من الرعب خابل
 وكان لهم بالحزم يوم عصبصب^(٢) وقد حشدت للحرب تلك القبائل^(٣)
 عنين وآل الفضل من آل برمك وكلهم للعرز أنف وكاهل
 وجاءت زبيد كالجراد وطئ^(٤) وكلهم يمني نفسه ما يحاول^(٥)
 وقوله :

فسار من الأحساء تطوى به الفلا عتاق المذاكي والمطي النوامل
 فمرت بقصر العنبري^(٦) ولم يكن لها بسوى دار الأعادي تشاغل^(٧)
 كما أشار إليها في قصيدة أخرى طويلة منها قوله :

ولما أتت أهل الشام يقودها إليه الردى قود الجنيب^(٨) لراكب
 سعيد ومسعود ورهط حديثه^(٩) يسرون جرد الخيل بين النجائب
 أتاهم يجوب البيد بالخييل والقنا فتى عبدلي في الوغى غير هائب^(١٠)

(١) الظليم : ذكر النعام ، والوابل : المطر الشديد .

(٢) يوم عصبصب : شديد الحر .

(٣) ديوان ابن المقرب ، ص ٣٥ .

(٤) قصر العنبري : لعله موضع في ديار بني العنبر من تميم ، وهي تقع شمال اليمامة في إقليم سدير والزلفي وما يليهما شرقاً ؛ فلعل محمد بن أحمد العيوني مرّ بجيشه عبر هذه الديار في طريقه لمواجهة قبائل طيء .

(٥) ديوان ابن المقرب ، ص ٣٥٦ .

(٦) الجنيب : الفرس يقاد إلى جانب الفرس المركوب حتى إذا تعب المركوب تحول الراكب إلى المجنوب .

(٧) هؤلاء بعض زعماء طيء وزبيد .

(٨) ديوان ابن المقرب ، ص ٥٠ .

وفي سنة ٩٩٥هـ/ ١٢٠٣م غزا الأمير العيوني محمد بن أحمد بن أبي سنان عرب بني مالك^(١) وأوقع بهم على ماء الدجاني^(٢) شمال شرق بلاد اليمامة بعد أن أظهروا تمرداً على سلطته^(٣) ، وفي ذلك يقول ابن المقرب :

سَلُوا تَخْبِرُوا مِنْ غَيْرِ جَهْلٍ لِفَعْلِهِ بَنِي مَالِكٍ فَالْحَرْ بِالْحَقِّ قَائِلٌ
أَلَمْ يَجْلِبِ الْجَرْدَ الْعَتَاقَ شَوَازِبًا^(٤) مِنْ الْخَطِّ تَتْلُوهَا الْمُطَايَا الْمُرَاسِلُ^(٥)
إِلَى أَنْ أَنَاخْتَ بِالْدَجَانِيِّ بَعْدَمَا بَرَاها السَّرَى وَالْأَيْنُ فَهِيَ نَوَافِلُ^(٦)
فَصَبَّحْنَ حَيًّا لَمْ تَصْبَحْ حِلَالَهُ قَدِيمًا وَلَا رَامَتْ لِقَاءَ الْجَحَافِلِ^(٧)

ومن القبائل التي غزاها محمد بن أحمد بن أبي سنان قبيلة غَزِيَّة^(٨) ، ويدل

(١) بنو مالك : قبيلة من قبائل طيئ ، كانوا ذوي بأس وقوة ، لكنهم ضعفوا وهلك أكثرهم بعد الهزيمة التي ألحقها بهم الأمير العيوني من ناحية ، ثم تتابع سنوات الجذب والقحط على بلادهم من ناحية أخرى ، مما اضطرهم للرحيل سنة ٦٠٧هـ/ ١٢١٠م قاصدين ريف العراق ، وفي الطريق أصابهم برد شديد ورياح عاتية أهلكت مواشيهم ، ومات أكثرهم في الطريق ، ولم يصل العراق منهم إلا القليل . (تحفة المستفيد ، ج ١ ، ص ٤٤٣ ، ضمن ملاحق الكتاب) .
(٢) الدجاني : ماء معروف شمال غرب الدهناء ، في العرمة قرب القاعية ، وهو يتبع إدارياً في الوقت الحاضر لمحافظة المجمع قاعدة بلاد سدير . (ابن خميس ، معجم اليمامة ، ج ١ ، ص ٤١٠) .

(٣) انظر : آل عبدالقادر ، محمد . تحفة المستفيد ، ج ١ ، ص ١٩٠ ، ٤٤٣ .

(٤) الشازب : الضامر ، ولعله يقصد الخيل .

(٥) المطايا المراسل : الإبل المدربة السهلة السير .

(٦) الأين : التعب .

(٧) ديوان ابن المقرب ، ص ٣٥٣ - ٣٥٤ .

(٨) غَزِيَّة : بالفتح ثم الكسر قبيلة كبيرة لها فروع كثيرة ، وهم أحلاف لآل الفضل من طيئ ، وكانوا في القرن السابع الهجري يقطنون في وسط نجد وشماله حيث كان يمر طريق الحاج العراقي . (انظر : العمري ، مسالك الأبصار ، ص ١٤٦ ، السويداء . الألف سنة الغامضة ، ج ١ ، ص ٢١٢ ، ٢٢٨) .

ما ذكره ابن المقرب على أن هذه القبيلة أخذت تقطع الطريق وتتعرض لقوافل الحجاج . فأرسل إليهم الأمير العيوني يحذرهم وينذرهم من مغبة هذا العمل . فلم يستجيبوا وظنوا أن الأمير لا يستطيع الوصول إليهم، فجرد عليهم حملة أوقعت بهم. وفي ذلك يقول ابن المقرب :

وهل منعت منه غزيرة دارها بأسمر عسال وأبيض قاضب^(١)
غداة أتاهم في سماء عجاجة أسنته من تحتها كالكواكب
وقد جاءهم منه النذير ليأخذوا من البر عن جوز الطريق بجانب
فلم يقبلوا قول النصيح وأعرضوا وظنوا ظنوناً يا لها من كواذب
فصبحهم شعواء سدت عليهم رحاب الفيافي شرقها والمغرب
فما لبثوا إلا فواقاً^(٢) وأجفلوا^(٣) كإجفال شاء من ذئاب سواغب^(٤)
وخلوا عن الأموال صفراً وأسلموا عذاب الثنايا ضاحكات الترائب
وطار ابن مذكور يشل قلاصه^(٥) وينذر من غاراته كل صاحب^(٦)

وقد نجح الأمير محمد بن أحمد في تأمين طريق قوافل الحجاج ، والقوافل التجارية ، وتعقب من يتعرضون لهم بسوء ، وأوقع بهم حتى أمن الناس شرهم . يقول شارح ديوان ابن المقرب : «كان في زمانه قد أخذ على أيدي مفسدي العرب

(١) يقصد الرماح والسيوف .

(٢) المراد فترة قصيرة من الوقت .

(٣) أجفلوا : فرّوا مسرعين .

(٤) سواغب : أي جائعة أشد الجوع .

(٥) ابن مذكور لعله أحد زعماء قبيلة غزية ، والقلاص : الإبل الشابة القوية . والمراد : فرّ ابن مذكور وهو يطرد قلاصه لعله ينجو بها .

(٦) ديوان ابن المقرب ، ص ٤٩ - ٥٠ .

حتى صار الراكب يسير إلى عمان من الأحساء وإلى العراق وإلى نجد وإلى الشام فلا يفزره أحد، وكذلك القافلة أين أدركها الليل باتت لا تخاف من أحد»^(١).

ويشير ابن المقرب إلى ذلك بقوله :

منا الذي أصحب المجتاز من حلب إلى العراق إلى نجد إلى أدما^(٢)

وقد أشار ابن المقرب في مواضع أخرى من شعره أيضاً إلى سعة نفوذ العيونيين ، وقد يكون في بعض ما قاله مبالغة إلا أنه في الجملة يعطي صورة عن مدى قوتهم واتساع نطاق نفوذهم في صحارى الجزيرة العربية ، سواء كان ذلك النفوذ مباشراً بالنسبة لبعض القبائل ، أم غير مباشر بالنسبة لأخرى ، يقول ابن المقرب :

أطاعت لهم ما بين مصر إلى القنا إلى حيث تلقي دارها الشحر والنقّب^(٣)

ويقول أيضاً :

بنى المعالي لهم فضل وشيدها أبو سنان قريع العجم والعرب

وأحمد ابنه الملك الذي منعت ما بين نزوى سراياه إلى حلب^(٤)

ويقول :

وقمت بأحكام الشريعة واستوت لديك ذوي الأجيال طيئ ووائل^(٥)

(١) المصدر السابق ، ص ٥٤٩ (هامش) .

(٢) المصدر السابق ، ص ٥٤٨ .

(٣) المصدر السابق ، ص ٢٩ . والقنا : موضع باليمن ، والشحر ، في بلاد حضرموت ، والنقّب : بلدة في اليمامة في وادي حنيفة قرب حجر اليمامة .

(٤) المصدر السابق ، ص ٧٩ . ونزوى في عمان : وهي مدينة مشهورة .

(٥) المصدر السابق ، ص ٢٤٣ .

ويقول :

حمى البر من حد العراق فحازه إلى الشام واستولى على حد ناعب^(١) وما يهمننا هنا أن هذه الوقائع التي خاضها العيونيون ، وهذه الإشارات التي ذكرها ابن المقرب تدل على امتداد نفوذ العيونيين إلى بلاد اليمامة^(٢) ، وخاصة في أوقات حكم حكامهم الأقوياء أمثال الفضل بن عبدالله ، وابنه أبي سنان محمد ، ومحمد بن أحمد بن أبي سنان .

ولكن مع ذلك كله يبدو أن حكم العيونيين في بلاد اليمامة لم يصل إلى درجة الحكم المستقر المنظم كما هو الحال في بلاد البحرين ، وإنما مجرد إظهار نوع من التبعية من قبل القوى المحلية الموجودة في تلك الآونة ، وأغلبها قوى قبيلة والتزامها بعدم التعرض لقوافل الحجاج والقوافل التجارية التي تمر بالمنطقة وكذلك عدم التعرض لمصالح الدولة العيونية الأخرى .

٢ - نفوذ الدولة العصفورية :

في مطلع القرن السابع الهجري ضعفت الدولة العيونية نتيجة الخلافات والانقسامات الداخلية ، وكان بنو عامر^(٣) يمثلون أكبر القوى في المنطقة في ذلك

(١) المصدر السابق ، ص ٥١ .

(٢) لا شك أن ما أورده ابن المقرب من معلومات تاريخية في أشعاره تؤكد أهمية الشعر باعتباره مصدراً من مصادر التاريخ ينبغي العناية به والاستفادة منه ، وخاصة عندما تفقد المصادر الأخرى ، كما هو الحال بالنسبة لتاريخ بلاد اليمامة والبحرين في هذه الحقبة .

(٣) تكاد تجمع المصادر على أن بني عامر ينتسبون إلى بني عَقيـل بن كعب بن ربيعة بن عامر بن صعصعة . وكانوا يقطنون جنوب بلاد اليمامة في الأفلاج وما يليه جنوباً حتى حدود الربع الخالي ، ونسب إليهم وادي العقيق (وادي الدواسر) فعرف بعقيق عَقيـل فترة من الزمن . وفي أواخر القرن الثالث أو مطلع القرن الرابع نزحوا إلى البحرين ، ومنذ ذلك التاريخ أصبح لهم شأن كبير في هذا الإقليم . (الحميدان ، عبداللطيف . إمارة العصفوريين ودورها السياسي في تاريخ شرق الجزيرة العربية . مجلة كلية الآداب ، جامعة البصرة ١٩٧٩م ، ص ٧٦) .

التاريخ وكانوا يخضعون للدولة العيونية في فترة قوتها ويعملون تحت لوائها ، وعندما ضعفت استغل زعيم بني عامر، عصفور بن راشد بن عميرة ذلك واستولى على مقاليد الأمور في بلاد البحرين، وبذلك ظهرت دولة جديدة عرفت بالدولة العصفورية، حكمت بلاد البحرين من سنة ٦٣٦هـ/ ١٢٣٩م حتى سنة ٧٥٠هـ/ ١٣٤٩م^(١) .

والمعلومات عن الدولة العصفورية قليلة ، وإمعان النظر فيها ينبئ بأن هذه الدولة لم تك على درجة من التنظيم كسابقتها الدولة العيونية، أو الدولة الجبرية التي حكمت بعدها، بل هي في واقع الأمر في وضع بين الزعامة القبلية والدولة المنظمة، ويبدو أن غلبة الطابع البدوي على بني عامر كان السبب في هذا الأمر .

ومهما يكن الأمر فقد حدثت تغيرات كبيرة في العالم الإسلامي في تلك الأثناء ، يحسن أن نشير بإيجاز إلى انعكاسها الرسمي على بلاد اليمامة والبحرين .

فقد سقطت الخلافة العباسية في بغداد على يد المغول سنة ٦٥٦هـ/ ١٢٥٨م كما هو معلوم . إثر ذلك أصبحت زعامة قسم كبير من بلاد العالم الإسلامي بيد دولة المماليك التي تعمل باسم الخلافة العباسية الجديدة التي أقامتها في مصر . ويبدو أن نظرة المماليك لبلاد البحرين واليمامة كانت تختلف عن نظرة الخلافة العباسية في بغداد ، فالخلافة العباسية كانت ترى أن بلاد اليمامة والبحرين وغيرها من أقاليم الجزيرة العربية من البلاد التابعة لسلطة الخلافة من الناحية الرسمية ، بالرغم من أن بعضها ومنها إقليم اليمامة لم يكن تابعاً للخلافة من الناحية الواقعية، وترى أن القوى التي استقلت بهذه الأقاليم قوى متمردة على سلطة الخلافة .

أما دولة المماليك فقد كانت نظرتها تختلف عن ذلك ، فقد قسم القلقشندي

(١) المقرئزي ، أحمد بن علي . درر العقود الفريدة في تراجم الأعيان المفيدة ؛ تحقيق محمد كمال عزالدين، ج ١ ، ص ١٢٨ .

أقطار الجزيرة العربية إلى قسمين : قسم عده من مضافات الديار المصرية ، وهو الحجاز ، أما القسم الآخر الذي يضم اليمامة والبحرين واليمن فعده من الممالك الخارجة عن مضافات الديار المصرية^(١) ، وعندما تحدث عن بلاد اليمامة قال : «ومما هو خارج من جزيرة العرب عن مضافات الديار المصرية اليمامة»^(٢) .

والقلقشندي كان من كبار كتاب ديوان الإنشاء في دولة المماليك ، وهذا الديوان يعد بمثابة وزارة الخارجية في تنظيمات الدول الحديثة ، وقوله هذا يعكس وجهة النظر الرسمية للدولة . والخلاصة أن بلاد اليمامة والبحرين منذ سقوط بغداد أصبحت من الناحية الرسمية والواقعية خارج إطار السلطة المركزية في العالم الإسلامي الممثلة في دولة المماليك .

بيد أن دولة المماليك بالرغم من تلك النظرة لبلاد اليمامة والبحرين وبسبب التنافس العسكري والسياسي والاقتصادي بينها وبين دولة الأليخانيين المغول في العراق وإيران ، حرصت على الارتباط بعلاقات جيدة مع القوى القبلية في نجد والبحرين ، وعلى رأس هذه القوى بنو عامر بزعامة العصفوريين ، وقد أشار القلقشندي إلى أن بعض زعماء بني عامر كانوا يفتدون إلى الديار المصرية ويحفظون برعاية وعناية وتقدير من سلاطين المماليك^(٣) .

أما عن نفوذ الدولة العصفورية في بلاد اليمامة ، فإن ابن سعيد المغربي ، وهو من المعاصرين لتلك الحقبة ، أورد ما يؤكد امتداد نفوذهم إلى هذه البلاد ، ومن ذلك قوله في حديثه عن بني عامر : «وملكوا أرض اليمامة من بني كلاب ،

(١) صبح الأعشى ، ج ٥ ، ص ٥ .

(٢) المصدر السابق ، ج ٥ ، ص ٥٨ .

(٣) نهاية الأرب في معرفة أنساب العرب ، ص ١٠٦ .

وكان ملكهم فيها لعهد الخمسين والستمائة عصفور وبنوه^(١) ، وقوله أيضاً: «بين القطيف واليمامة مجالات بني عامر ، ولم يبق معهم لأحد من العرب عز في بلاد اليمامة والبحرين ، ومنهم الآن ملوك الصقعين»^(٢) .

وينقل القلقشندي عن ابن فضل الله العمري وصفاً لأوضاع بني عصفور بعد عهد المؤسس وأثناء حكم أحفاده أبناء الشيخ مانع بن عصفور فيقول : «الإمرة فيهم في أولاد مانع إلى بقية أمراء منهم وكبراء لهم ، وبلادهم ما بين العراق والحجاز ، ولهم قصور مبنية وآطام عليّة ، وريف غير متسع ، إلى ما لهم من النعم والماشية ، والحاشية الفاشية» ، ثم يضيف : «إلا أن الكلمة قد صارت بينهم شتى والجماعة متفرقة»^(٣) .

وهذا النص يفيد أشياء كثيرة يهمننا منها تحديد مناطق نفوذ بني عصفور في تلك الحقبة ، فقوله : «ما بين العراق والحجاز» يفهم منه أنها تشمل نجداً ، أو أجزاء منها ، كما يفهم من النص أيضاً وجود خلافات ونزاع بينهم .

(١) ابن خلدون . تاريخ ابن خلدون ، ج ٢ ، ص ٢١٢ ، ج ٦ ، ص ١٢ . القلقشندي . نهاية الأرب ، ص ٣٣ .

(٢) ابن سعيد المغربي ، علي بن موسى . كتاب الجغرافيا : تحقيق إسماعيل العربي - بيروت ، ١٩٧٠م ، ص ١١٨ .

ولعل استيلاء أبي بكر السلفري أتابك الدولة السلفرية في جنوب بلاد فارس على جزيرة أوال (البحرين) ، والقطيف ، قبيل منتصف القرن السابع الهجري ، كان أحد الأسباب التي دفعت بني عامر بزعامة بني عصفور إلى الارتداد نحو الداخل والتوسع في إقليم اليمامة وعمان ، رغبة في الاستفادة من القوى القبلية الموجودة في تلك البلاد لمقاومة الاحتلال السلفري لأجزاء من بلاد البحرين . (انظر : الحميدان ، عبداللطيف ، إمارة العصفوريين . مجلة كلية الآداب ، جامعة البصرة ١٩٧٩م ، ص ٩٠ - ٩٢) .

(٣) نهاية الأرب ، ص ١٠٦ - ١٠٧ . صبح الأعشى ، ج ٧ ، ص ٣٧٠ - ٣٧١ .

ومهما يكن الأمر . فإن ما ذكره ابن سعيد المغربي عن سيطرة بني عصفور على اليمامة . ثم نقله عنه من جاء بعده من المؤرخين ، مثل ابن فضل الله العمري ، وابن خلدون ، والقلقشندي ، يصور ما كان سائداً في النصف الثاني من القرن السابع الهجري أثناء حقبة قوة بني عامر ووحدتهم ، بيد أن نفوذهم في بلاد اليمامة أخذ يتقلص بعد ذلك ، نتيجة انشغالهم بالنزاعات بينهم من جهة ، ثم بمصارعة قوى أخرى ظهرت في بلاد البحرين وأخذت تنافسهم على السلطة والزعامة من جهة أخرى^(١) . على أن بني عامر وإن فقدوا الزعامة السياسية ، إلا أن وجودهم في بلاد البحرين وأطراف اليمامة بقي مستمراً باعتبارهم إحدى القوى القبلية الفاعلة ، كما أن نشاطاتهم في مجال قيادة القوافل التجارية وحراستها كان مستمراً أيضاً حتى بعد زوال دولتهم .

٣ - نفوذ دولة بني جروان :

في منتصف القرن الثامن الهجري وبالتحديد في سنة ٧٥٠هـ/١٣٤٩م حسب ما ذكر المقرئزي^(٢) ، استطاع جروان المالكي^(٣) الاستيلاء على قسم كبير من بلاد

(١) الحميدان ، عبد اللطيف . إمارة العصفوريين ، ص ١١٨ - ١١٩ .

(٢) المقرئزي ، أحمد بن علي ، درر العقود الفريدة في تراجم الأعيان المفيدة : تحقيق محمد كمال عز الدين ، ج ١ ، ص ١٢٨ . وقد ورد تاريخ استيلاء جروان على الحكم عند ابن حجر سنة ٧٠٥ هـ . (الدرر الكامنة ، ج ١ ، ص ٧٥) . وقد أثار هذا لبساً عند المهتمين بتاريخ المنطقة ، وواضح أن ابن حجر نقل عن المقرئزي ، ولكن وقع خطأ في التاريخ ، والصواب ما جاء عند المقرئزي . وقد رجح عبد اللطيف الحميدان أن قيام دولة بني جروان كان سنة ٧٩٥ تقريباً / ١٣٩٣م . (التاريخ السياسي لإمارة الجبور في نجد وشرق الجزيرة العربية ، ص ٢٧) ، ويبدو أنه لم يطلع على ما ذكره المقرئزي .

(٣) الراجح في نسب بني جروان أنهم من بني مالك بن عامر بن الحارث من بني عبد قيس ، فالنسبة هنا إلى الجد لا إلى المذهب ، أما مذهبهم فهم شيعة إسماعيلية . (ابن عقيل الظاهري ، أبو عبد الرحمن . أنساب الأسر الحاكمة في الأحساء ، ج ١ ، ص ١٩٢ - ١٩٢) .

البحرين ، وأسس ما عرف بالدولة الجروانية ، وقد استمرت هذه الدولة حتى تمكن الجبريون من انتزاع الأحساء منها في مطلع العقد الثالث من القرن التاسع الهجري، ثم قضوا عليها تماماً قبيل منتصف القرن نفسه ، أي أن هذه الدولة عمرت نحو تسعين عاماً .

ولا تتوافر لدينا معلومات موثوقة عن امتداد نفوذ الجروانيين إلى بلاد اليمامة ، ونرجح أن نفوذهم لم يمتد إليها، وأنهم كانوا قوة إقليمية محدودة لم يتجاوز نفوذها بلاد البحرين .

ولعل من المناسب في هذا المقام الإشارة إلى أنه ورد في كتاب «إمتاع السامر بتكملة متعة الناظر» المنسوب إلى شعيب بن عبد الحميد الدوسري ، أن بني جروان حاولوا في سنة ٧٨٠هـ/١٣٧٨م الاستيلاء على جنوب بلاد اليمامة وإلحاقها بدولتهم، فأرسلوا جيشاً من قبائل بني عُقيل ، تمكن من دخول وادي الدواسر (العقيق) ؛ إلا أن أمير الدواسر، وأمير بني جميلة استجدا بأمر عسير آنذاك ، فأرسل جيشاً لنجدتهما ، استطاع إلحاق الهزيمة بقوات بني جروان وطردها^(١) .

وورد في موضع آخر من الكتاب نفسه أن قبائل نجد بزعامة بني لام تحالفت في سنة ٧٢١هـ/١٢٣١م مع الأمير إبراهيم بن ناصر بن جروان أمير الأحساء ، ضد قوات أمير عسير التي كانت قد دخلت إلى نجد قبل ذلك وتمركزت في بلدة أوضاع، وتمكنوا من إلحاق الهزيمة بها وإخراجها من نجد^(٢) .

وفضلاً عن أن التاريخ الأخير وهو سنة ٧٢١هـ كان قبل قيام دولة بني جروان

(١) انظر : طبعة دار الملك عبدالعزيز ؛ تحقيق محمد الحميد وعبدالرحمن الرويشد ، ص ٣٦-٣٧ .

(٢) المرجع السابق ، ص ٣٢٩ .

بنحو ثلاثين عاماً . وأن الأمير إبراهيم بن ناصر بن جروان المشار إليه أنه كان أمير الأحساء لم يكن قد ولد بعد في ذلك التاريخ^(١) . فإن الأخبار والمعلومات الواردة في هذا المرجع لا يوثق بها - كما أشرنا من قبل - لكثرة ما حواه من مزاعم وافتراءات . وللشك في حقيقة مؤلفه أو مؤلفيه^(٢) .

٤ - نفوذ الدولة الجبرية :

لا تمدنا المصادر بمعلومات قطعية الدلالة تحدد تاريخ قيام الدولة الجبرية في بلاد البحرين؛ إلا أن الدكتور عبداللطيف بن ناصر الحميدان رجّح في بحثه القيم عن إمارة الجبور، أن استيلاء الجبور على السلطة في الأحساء وإقصاء بني جروان عنها كان في حدود سنة ٨٢٠هـ/١٤١٧م^(٣). ثم ما لبث الجبور أن قضوا على إمارة بني جروان تماماً ومدوا سلطتهم على القطيف وسائر بلاد البحرين في حدود سنة ٨٤٣هـ/١٤٣٩م^(٤). وتعد الدولة الجبرية من أقوى الدول التي حكمت إقليم البحرين ، ومن أكثرها شهرة، اتسع نطاق نفوذها بحيث شمل مناطق واسعة؛ ففضلاً عن سيطرتها على إقليم البحرين امتد نفوذها إلى أجزاء كبيرة من عُمان، ووصل إلى إقليم ظفار ؛ كما استطاعت بسط قدر من النفوذ على القوى القبلية في نجد .. ولهذه الدولة جهود مشكورة في التصدي للغزو البرتغالي للخليج العربي .

(١) ترجم لإبراهيم بن ناصر كل من المقرئ في كتاب «درر العقود الفريدة في تراجم الأعيان المفيدة» ، ج ١ ، ص ١٢٨ ، وابن حجر في : الدرر الكامنة ، ج ١ ، ص ٧٥ ، وذكر أنه كان موجوداً في سنة ٨٢٠هـ .

(٢) عن هذا الأمر انظر : الدراسة التي كتبها أبو عبدالرحمن بن عقيل الظاهري ونشرت ملحقاً بطبعة الكتاب المشار إليها ، وكذلك مقدمة محققي الكتاب وتعليقاتهما عليه .

(٣) التاريخ السياسي لإمارة الجبور في نجد وشرق الجزيرة العربية . مجلة كلية الآداب ، جامعة البصرة ١٩٨٠م ، ص ٤٠ - ٤١ .

(٤) المرجع السابق ، ص ٤٢ .

وما يهمنا هنا إيضاح علاقة الجبور بإقليم اليمامة وبيان طبيعة نفوذهم به ، فالجبور ما أن استقرت أقدامهم في إقليم البحرين ، حتى توجهت أنظارهم إلى إقليم نجد ، فقد حظي هذا الإقليم باهتمام كبير من أمراء الدولة الجبرية ، ولعل ذلك يرجع إلى أسباب يمكن إجمالها فيما يلي :

أ - صلة قبائل بني عامر - ومنهم الجبور - التاريخية بنجد ، فهي موطنهم الأصلي ، وبالرغم من أنهم نزحوا منه إلى البحرين قبل عدة قرون ، إلا أن صلاتهم به لم تنقطع ، وخاصة أن طابع البداوة كان هو الغالب على كثير من بطون بني عامر ، وكانوا يرتادون الأجزاء الشرقية من بلاد اليمامة المتاخمة للبحرين بانتظام ، وكانوا يعتزون بالانتماء إلى نجد ، يدل على ذلك إضافة لقب «النجدي» إلى سلسلة نسب الجبور ، ولقب «رئيس أهل نجد» إلى ألقاب حكامهم في فترة قوتهم . يقول السمهودي وهو مؤرخ معاصر ، التقى بأجود بن زامل الجبري : «أخبرني بذلك رئيس أهل نجد ورأسها ، سلطان البحرين والقطيف ، فريد الوصف والنعته في جنسه ، صلاحاً ، وإفضالاً ، وحسن عقيدة ، أبو الجود أجود بن جبر أيده الله وسدده»^(١) . ويقول السخاوي وهو معاصر لأجود بن زامل أيضاً : «أجود بن زامل العقيلي الجبري ، نسبة لجده له اسمه جبر ، ولهذا يقال له ولطائفته بنو جبر النجدي الأصل المالكي» ، ثم وصفه بأنه : «صار رئيس نجد»^(٢) .

ب - أن بلاد نجد عامة ، واليمامة خاصة ، تعد من الناحية الجغرافية ، والإستراتيجية العسكرية ، ظهيراً لبلاد البحرين تستند إليه ، وعمقاً تعتمد عليه في مدها بالعناصر البشرية العربية المتصفة بالحياة والصلافة

(١) وفاء الوفاء بأخبار دار المصطفى - بيروت : دار إحياء التراث العربي ، ١٤٠١هـ / ١٩٨١م ، ج٣ ، ص ١٠٩١ .

(٢) الضوء اللامع لأهل القرن التاسع - بيروت : دار مكتبة الحياة ، ج ١ ، ص ١٩٠ .

والشجاعة في المجال العسكري . لمواجهة الأخطار القادمة من بلاد العجم عبر الخليج^(١) . ثم لمواجهة أخطار الغزو البرتغالي .

ج - من الناحية الاقتصادية تعد بلاد اليمامة حلقة وصل بين أقاليم الجزيرة العربية، فهي معبر القوافل التجارية المنطلقة من إقليم البحرين إلى الحجاز ، واليمن ، وبلاد ظفار ، والقادمة منها أيضاً ، وتأمين طرق هذه القوافل يقتضي فرض النفوذ على القوى الموجودة في بلاد اليمامة ، أو التفاهم معها . ومما زاد من الأهمية الاقتصادية لبلاد اليمامة والطرق التي تمر عبرها في عصر الدولة الجبرية ، ازدياد الطلب من قبل المماليك والعثمانيين ، وحكام الهند على سلعتين إستراتيجيتين مهمتين ، هما الجمال والخيول ، وبلاد نجد والبحرين كانت من أهم مواطن إنتاج هاتين السلعتين في تلك العصور^(٢) .

وقد حرص بنو عامر العقيليون وعلى رأسهم الجبور على احتكار هذه التجارة ، وتولي عملية نقلها إلى البلاد المستوردة ، أو إلى موانئ التصدير ، في قوافل منظمة ، وهذا الأمر كان مورداً اقتصادياً مهماً يدرّ عليهم مكاسب كبيرة^(٣) . ومن أسباب اهتمام أمراء الجبور ببلاد اليمامة حرصهم على تأمين طرق الحج

(١) الحميدان ، التاريخ السياسي لإمارة الجبور ، ص ٥٩ .

(٢) المرجع السابق ، ص ٤٧ .

(٣) تجدر الإشارة هنا إلى أن نشاط بني عامر العقيليين في مجال خفارة القوافل التجارية ، وتجارة الإبل والخيول ، استمر مدة طويلة بعد سقوط دولة الجبور ، ويبدو أن الخبرات الكبيرة التي اكتسبوها وتوارثوها عبر قرون عدة وأجيال متعاقبة ، أكسبتهم معرفة واسعة بالطرق والموارد ، وعقد الاتفاقات والتحالفات مع زعماء القبائل الأخرى، ومعرفة أنواع البضائع والمواسم والأسواق ، وغير ذلك من الخبرات في مجال الخفارة والتجارة كل ذلك ساعدهم على النجاح والتميز في هذا الأمر ، حتى أصبح يطلق على هذه القوافل «قافلة عَقِيل» ، ثم أصبح هذا الاسم لقباً يطلق على كل من يعمل في هذا المجال من أهل نجد والأحساء ، ==

لأهل البحرين ، ولمن يأتي عن طريقها من بلاد فارس ، والهند ، والمشرق الإسلامي .. فمعلوم أن هذا الطريق يمر عبر بلاد اليمامة ، والسيطرة عليه تحقق للجبور مكاسب مادية من خلال ما يتقاضونه نظير مرافقة قوافل الحجاج وحمايتهم ، فضلاً عن المكاسب السياسية .

د - من الأمور المهمة التي كان لها أثر كبير في تحديد طبيعة علاقة الدولة الجبرية ببلاد نجد عامة واليمامة خاصة ، رغبة حكامها في توفير الحماية لممتلكاتهم ومواطنيهم في بلاد الأحساء مركز دولتهم وتحقيق الاستقرار والأمن الداخلي فيها ، فقد كانت بعض القوى البدوية في بلاد اليمامة تهاجم أطراف واحات الأحساء الزراعية ، وبواديها ، وتشكل خطراً داهماً ، وتهديداً دائماً لها .

ويبدو أن هذه القوى كانت تمارس هذا الأمر قبل قيام دولة الجبور مستغلة حالة الضعف والاضطراب السائدة في بلاد البحرين ، يدفعها لذلك حالة الفقر والحاجة التي كانت تعيشها في بيئتها الصحراوية في بلاد اليمامة ، مقابل الغنى النسبي ، وتوافر الحاصلات في بلاد الأحساء ، ولما قامت الدولة الجبرية واستقرت قدمها رأت أن من أهم واجباتها التصدي لهذه القوى وردعها .

لهذه الأسباب كلها حرص حكام الدولة الجبرية على أن يكون لهم هيبة ونفوذ

== وإن كانوا من قبائل أخرى ، فيقال عُقيلي ، والجمع - وفق الاستعمال العامي الدارج - عقيل أو عقيلات. ولعل هذا هو التعليل التاريخي لإطلاق اسم «العقيلات» على أولئك التجار النجديين الذين برعوا في تجارة الإبل والخيل وغيرها ، وعرفوا بعبادات ، وأخلاق ، وتقاليد ، وعلاقات متميزة ، وكانوا يجوبون أرجاء الجزيرة العربية وبلاد العراق والشام ومصر حتى وقت قريب من عصرنا هذا. (انظر : الظاهري ، أبو عبدالرحمن بن عقيل ، مسائل من تاريخ الجزيرة العربية - ٠ الرياض: دار الأضالة ، ١٤١٣هـ/١٩٩٣م ، ص ٢١٣ - ٢١٩). وقد صدرت عدة دراسات عن العقيلات ، ونشاطاتهم وعاداتهم وأخلاقهم وآدابهم من أبرزها كتاب: العقيلات لإبراهيم المسلم ، وكتاب : نجديون وراء الحدود للدكتور عبدالعزيز عبدالغني إبراهيم .

في بلاد اليمامة. وسيروا من أجل ذلك جيوشاً قوية تعمقت في بلاد اليمامة وخاضت معارك كثيرة مع القوى القبلية فيها مثل قبائل الدواسر، وعائذ، والفضول، وآل مغيرة . وسبيع . وألحقوا بها هزائم متتالية^(١) .

كما أن حكام الدولة الجبرية كانوا يرسلون كل عام مع قافلة الحاج قوة عسكرية كبيرة لحمايتها ، تمر عبر بلاد اليمامة ذهاباً وعودة ، فيما يشبه العرض العسكري الذي يؤكد نفوذهم ، ويزرع الهيبة في نفوس زعماء القوى القبلية في المنطقة ، ويعزز مواقف المواليين لهم .

ومن أمثلة غزوات حكام الدولة الجبرية للقوى القبلية في اليمامة ، ما ذكره ابن بسام في أحداث سنة ٨٥١هـ/١٤٤٧م حيث قال : «وفي هذه السنة غزا زامل بن جبر العقيلي العامري ، ملك الأحساء والقطيف ، ومعه جنود عظيمة من البادية والحاضرة ، وقصد الخرج ، وصبح^(٢) الدواسر وعائذ على الخرج ، وحصل بينهم قتال شديد قتل فيه عدة رجال من الفريقين ، ثم صارت الهزيمة على الدواسر وعائذ ، واستولى زامل على محلتهم وأغنامهم وبعض إبلهم ، وأقام في الخرج نحو عشرين يوماً ثم قفل راجعاً إلى وطنه»^(٣) .

وفي السنة التالية كرر زامل غزو بلاد اليمامة وقصد هذه المرة الدواسر في واديهم (وادي الدواسر)، يقول ابن بسام مبيناً أسباب هذه الغزوة وأحداثها: «في هذه السنة ظهر إلى نجد زامل بن جبر العقيلي العامري من الأحساء، ومعه جنود كثيرة من البادية والحاضرة، وقصد الدواسر في واديهم، وكانوا قد أكثروا الغارات على بوادي الأحساء،

(١) انظر : ابن بسام . تحفة المشتاق ، ص ١١ ، ١٢ ، ١٣ ، ١٥ ، ٢٧ ، ٢٨ ، ٣٥ .

(٢) صبح : أي هاجمهم وقت الصباح .

(٣) تحفة المشتاق ، ص ١١ - ١٢ .

فأوغروا صدره، فدهمهم في منازلهم، ثم إنهم صالحوه على أن يكفوا الغارات عمن تحت يده من العربان ، وأعطوه من الخيل والركاب ما أراضاه فرجع إلى وطنه»^(١) .
وفي سنة ٨٥٥هـ/ ١٤٥١م غزا زامل الجبري بلاد اليمامة مجدداً ، وتوجه هذه المرة إلى الجهة الشمالية الشرقية منها ، حيث هاجم الفضول على مورد حفر العتك^(٢) وألحق بهم الهزيمة^(٣) .

ومع ذلك كله لم يستطع الجبور السيطرة على مقاليد الأمور في بلاد اليمامة؛ يدل على ذلك استمرار الحروب والنزاعات بين القوى المحلية المتنافسة فيها ..
ويبدو أن الجبور - شأنهم في ذلك شأن من سبقهم من القوى التي حكمت بلاد البحرين - أدركوا أن السيطرة المباشرة والكاملة على بلاد اليمامة أمر في غاية الصعوبة ، لذلك اكتفوا بفرض نفوذ غير مباشر ، وقنعوا بالتزام القوى المحلية في اليمامة بعدم مهاجمة البلاد التي يحكمونها ، والقبائل الموالية لهم في البحرين ، وعدم التعرض لمصالحهم الاقتصادية ممثلة في القوافل التجارية التي يسبرونها عبر بلاد اليمامة ، وكذلك قوافل الحجاج .

خاتمة :

وبعد هذه الرحلة في مجاهل تاريخ بلاد اليمامة خلال هذه الحقبة ، لعله قد اتضح أنه لم يظهر في هذه البلاد خلالها دولة أو إمارة منظمة تحكم الإقليم ، وتنظم شؤونه السياسية، والأمنية، والاقتصادية، والاجتماعية، والثقافية، بل لا نكاد

(١) المصدر السابق ، ص ١٢ .

(٢) حضر العتك : مورد من أهم موارد المياه في شمال شرق اليمامة، يبعد عن الرياض نحو مئة وخمسين كيلاً إلى الشمال ، ويقع في أسفل وادي الطيري . (ابن خميس ، معجم اليمامة ، ج ١، ص ٢٣٣ - ٢٣٤) .

(٣) ابن بسام ، تحفة المشتاق ، ص ١٥ .

نرى سوى قوى قبلية متصارعة . او مستوطنات زراعية حضرية صغيرة متنافرة متنافسة . لكل قبيلة شيخ . ولكل مستوطنة زعيم . والخلاف دائم والنزاع مستمر . لا تجمعهم قيادة مشتركة . ولا يحكمهم نظام ، ولا تؤلف بينهم وحدة .

هذا الفراغ السياسي . والاضطراب الأمني ، جعل المنطقة مجالاً لنفوذ القوى المجاورة ، وخاصة تلك الدول التي ظهرت في إقليم البحرين ، أقرب الأقاليم إلى بلاد اليمامة وأكثرها صلة وارتباطاً بها ، فكان لتلك الدول نفوذ في اليمامة كما أشرنا ، لكنه نفوذ محدود وقاصر ، فهو محدود في حقه الزمنية ، حيث اقتصر على مراحل قوة تلك الدول ووحدتها ، كما أنه محدود في طبيعته ومضمونه ، إذ لم يتجاوز إظهار قدر من الاحترام والهيبة من قبل القوى المحلية في بلاد اليمامة للقوى الحاكمة في بلاد البحرين ، يترجم بقدر محدود من التبعية ، أو الالتزام بعدم التعرض لمصالح تلك الدول ، حسب قوة الطرف الآخر وضعفه . وفي كل الأحوال ؛ فإن هذا النفوذ كان محدوداً في أثره فهو لم يؤد إلى نتائج ملموسة على أرض الواقع سواء في الحياة السياسية ، أم الاقتصادية ، أو الأمنية ، أو الاجتماعية ، أو الثقافية ، في بلاد اليمامة . إن مثل هذه الدراسة التي تنقل صورة عن ماضي هذه البلاد في مراحل الفوضى والفرقة والنزاع ، تعطي درساً في أهمية الوحدة والتعاون والترابط الاجتماعي ، وخاصة عندما نقارن تلك الصورة ، بصورة هذه البلاد بعد أن من الله عليها بالوحدة والأمن والاستقرار والرخاء الاقتصادي والتقدم العلمي والحضاري .

وأخيراً إذا كانت هذه الدراسة لم تعط صورة واضحة عن تفصيلات تاريخ بلاد اليمامة في هذه المرحلة الغامضة ، بالقدر الذي يلبي رغبة القارئ ويرضي طموحه ، فإننا نأمل أن تكون قد أسهمت بقدر ما توافر من معلومات ، وما سمحت به تلك المعلومات من تحليلات واستنتاجات ممكنة في تحقيق أمور منها :

- ١ - إضافة لبنة جديدة إلى جهود الرواد السابقين تساعد في سد الثغرة الواسعة في معارفنا التاريخية عن بلاد اليمامة في هذه الحقبة .
 - ٢ - إضافة حلقة جديدة تساعد في ربط تاريخ هذه البلاد في العصور السابقة لهذه المرحلة بالعصور اللاحقة لها .
 - ٣ - تقديم معلومات إضافية عن القوى المحلية التي ظهرت في المنطقة خلال هذه المدة، وتتبع تاريخها والعلاقات بينها، وإيضاح التغيرات السكانية (الديموغرافية) والتموجات البشرية في المنطقة خلال تلك الحقبة، مما يساعد في متابعة الدراسات في مجالات التاريخ الاجتماعي، والأنثروبولوجيا لسكان المنطقة في عصور لاحقة.
 - ٤ - تتبع مظاهر نفوذ الدول التي حكمت بلاد البحرين في بلاد اليمامة ، وبيان طبيعة ذلك النفوذ وأثره .
 - ٥ - طرح آراء ، وتحليلات ، واستنتاجات ، قد تفتح آفاقاً لباحثين آخرين لمواصلة البحث في تاريخ هذه الحقبة ، وإضافة الجديد مما يعزز ما ذهب إليه الباحث، أو ينفيه ويصححه، ويثري المعرفة التاريخية عن هذه الحقبة.
- وكما أشرنا في مطلع هذه الدراسة، فإن بذل الوسع في استقصاء المعلومات ، ثم تحليل مضمونها ، والربط بينها ، واستخلاص نتائج منها وإن كانت قليلة تعد أموراً ذات أهمية كبيرة في مثل هذه المرحلة التي يلفها الغموض، فهي وإن كانت بمثابة ثقاب ضعيف أو شمعة صغيرة ، إلا أن هذا الثقاب وتلك الشمعة تكون ذات قيمة عندما يشع ضوءها في ليل حالك، في حين لا يكون لها أي أثر أو قيمة في رابعة نهار مشرق .
- وعلى أي حال، فمن المعلوم أن الباحث أي باحث لا يمكن أن يوجد معدوماً، ولكن يمكنه أن يستقصي، ويحلل، ويستنتج ، ونأمل أن يكون في هذه الدراسة شيء من ذلك .

المصادر والمراجع

أولاً : المصادر :

- ١ - الأصفهاني ، الحسن بن عبدالله (ت نحو ٣١٠هـ) . بلاد العرب : تحقيق حمد الجاسر وصالح العلي -٠ الرياض : دار اليمامة للبحث والنشر ، ١٣٨٨هـ .
- ٢ - ابن المقرب العيوني . علي (ت ٦٣٠هـ) . ديوان ابن المقرب : تحقيق عبدالفتاح محمد الحلو -٠ الأحساء : مكتبة التعاون الثقافي ، ١٣٨٣هـ / ١٩٦٣م .
- ٣ - ابن بطوطة . محمد بن إبراهيم (ت ٧٧٩هـ) . رحلة بن بطوطة -٠ بيروت : دار صادر (د.ت) .
- ٤ - ابن بسام ، عبدالله بن محمد (ت ١٣٤٦هـ) . تحفة المشتاق في أخبار نجد والحجاز والعراق ، نسخة مخطوطة بخط نور الدين شربية (لدى الباحث صورة منها) .
- ٥ - ابن بشر ، عثمان بن عبدالله (ت ٢٩٠هـ) . عنوان المجد في تاريخ نجد : تحقيق عبدالرحمن بن عبداللطيف آل الشيخ -٠ الرياض : دار الملك عبدالعزيز ، ١٤٠٣هـ / ١٩٨٣م .
- ٦ - ابن حجر ، أحمد بن علي (ت ٨٥٢هـ) . الدرر الكامنة في أعيان المئة الثامنة -٠ بيروت : دار الجبيل (د.ت) .
- ٧ - ابن خلدون ، عبدالرحمن بن محمد (ت ٨٠٨هـ) . العبر وديوان المبتدأ والخبر في أيام العرب والعجم والبربر ومن عاصرهم من ذوي السلطان الأكبر : (تاريخ ابن خلدون) -٠ بيروت : دار البيان ، ١٩٧٩م .

- ٨ - ابن سعيد المغربي ، علي بن موسى (ت ٦٨٥هـ) . كتاب الجغرافيا : تحقيق إسماعيل العربي -٠ بيروت ، ١٩٧٠م .
- ٩ - ابن سيار : جبر (- ت ١٠٨٥هـ/١٦٦٤م) . نبذة في أنساب أهل نجد : تحقيق راشد بن محمد بن عساكر -٠ الكويت : مكتبة ذات السلاسل ، ١٤٢٢هـ/٢٠٠٢م .
- ١٠ - ابن عيسى ، إبراهيم بن صالح (ت ١٢٤٣هـ) . تاريخ بعض الحوادث الواقعة في نجد : تحقيق حمد الجاسر -٠ الرياض : دار اليمامة للبحث والترجمة والنشر، ١٩٦٦م
- ١١ - ابن لعبون ، حمد بن محمد (ت بعد ١٢٥٥هـ) . تاريخ حمد بن محمد بن لعبون -٠ الطائف : مكتبة المعارف ، ١٤٠٨هـ .
- ١٢ - الحربي ، إبراهيم بن إسحاق (ت ٢٨٥هـ) . كتاب المناسك وأماكن طرق الحج ومعالم الجزيرة : تحقيق حمد الجاسر -٠ الرياض : دار اليمامة ، ١٩٨١م .
- ١٣ - الحموي ، ياقوت (ت ٦٢٦هـ) . معجم البلدان -٠ بيروت : دار إحياء التراث ، ١٣٦٧هـ .
- ١٤ - خسرو ، ناصر ت القرن الخامس الهجري .. سفرنامة : (رحلة ناصر خسرو) : ترجمة يحيى الخشاب -٠ بيروت : دار الكتاب الجديد ، ١٩٨٣م .
- ١٥ - السخاوي ، محمد بن عبدالرحمن (ت ٩٠٢هـ) . الضوء اللامع لأهل القرن التاسع -٠ بيروت : دار مكتبة الحياة (ب.ت) .
- ١٦ - السمهودي ، علي بن أحمد (ت ٩١١هـ) . وفاء الوفاء بأخبار دار المصطفى -٠ بيروت : دار إحياء التراث العربي ، ١٤٠١هـ/١٩٨١م .

١٧- العمري . أحمد بن يحيى (ت ٧٤٩هـ) . مسالك الأبصار في ممالك

الأمصار : تحقيق دوروتيا كرافولسكي ، المركز الإسلامي للبحوث - بيروت ، ١٩٨٥ م .

١٨- الفاخري ، محمد بن عمر (ت ١٢٧٧هـ) . الأخبار النجدية : تحقيق عبدالله

ابن يوسف الشبل - الرياض : جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية ، لجنة البحوث والتأليف والترجمة والنشر .

١٩- القلقشندي ، أبو العباس أحمد بن علي (ت ٨٢١هـ) . صبح الأعشى في صناعة

الإنشاء ، ج ٥ - القاهرة : المؤسسة المصرية العامة للتأليف والترجمة والطباعة والنشر (د.ت) .

٢٠- _____ . قلائد الجمان في التعريف بعرب الزمان : تحقيق إبراهيم

الإبياري - القاهرة : دار الكتب الحديثة .

٢١- _____ . نهاية الأرب في معرفة أنساب العرب : تحقيق إبراهيم الإبياري -

بيروت : دار الكتاب اللبناني ، ١٩٨٠ م .

٢٢- الكتبي ، محمد بن شاکر (ت ٧٦٤هـ) . فوات الوفيات والذيل عليها : تحقيق :

إحسان عباس - بيروت : دار صادر ، (د.ت) .

٢٣- المقرئزي ، أحمد بن علي (ت ٨٤٥هـ) . درر العقود الفريدة في تراجم الأعيان

المفيدة طبعة ١٩٩٢م : تحقيق محمد كمال عزالدين - بيروت : عالم الكتب .

٢٤- النويري ، أحمد بن عبد الوهاب (ت ٧٣٣هـ) . نهاية الأرب في فنون الأدب طبعة

١٩٨٠م ، ج ٢٣ : تحقيق أحمد كمال زكي ومحمد مصطفى زيادة - القاهرة :

الهيئة المصرية العامة للكتاب .

ثانياً : المراجع :

- ٢٥- ابن بسام ، عبدالله . علماء نجد خلال ست قرون -٠ مكة المكرمة : مكتبة ومطبعة النهضة الحديثة ، ١٣٩٨هـ .
- ٢٦- ابن خميس ، عبدالله بن محمد . معجم اليمامة -٠ الرياض : مطابع الفرزدق، ١٣٩٨هـ/١٩٧٨م .
- ٢٧- _____ . تاريخ اليمامة -٠ الرياض : مطابع الفرزدق ، ١٤٠٧هـ/١٩٨٧م .
- ٢٨- _____ . الدرعية -٠ الرياض : مطابع الفرزدق ، ١٤٠٢هـ/١٩٨٢م .
- ٢٩- ابن عبدالقادر الأنصاري ، محمد بن عبدالله . تحفة المستفيد في تاريخ الأحساء القديم والجديد -٠ الرياض : الأمانة العامة للاحتفال بمرور مئة عام على تأسيس المملكة ، ١٤١٩هـ/١٩٩٩م .
- ٣٠- ابن عقيل الظاهري ، أبو عبدالرحمن . أنساب الأسر الحاكمة في الأحساء -٠ الرياض : دار اليمامة للنشر ، ١٤٠٣هـ/١٩٨٣م .
- ٣١- _____ . مسائل من تاريخ الجزيرة العربية -٠ الرياض : دار الأصاله ، ١٤١٣هـ/١٩٩٣م .
- ٣٢- التميمي ، إبراهيم بن راشد . تاريخ حوطة بني تميم -٠ بيروت : الدار العربية للموسوعات ، ١٤٢٥هـ/ ٢٠٠٤م .
- ٣٣- الجاسر ، حمد . مدينة الرياض عبر أطوار التاريخ -٠ ط١ -٠ الرياض : منشورات اليمامة للبحث والترجمة والنشر ، ١٣٨٦هـ .
- ٣٤- _____ . جمهرة أنساب الأسر المتحضرة في نجد -٠ الرياض : دار اليمامة للبحث والترجمة والنشر ، ١٤٠١هـ/١٩٨١م .

- ٣٥- الخضيرى ، علي بن عبدالعزيز . علي بن المقرب العيوني حياته وشعره -٠
بيروت : مؤسسة الرسالة . ١٤٠١هـ / ١٩٨١م .
- ٣٦- الدامغ . أحمد بن عبدالله . روضة سدير عبر التاريخ -٠ الرياض : مطابع
الجاسر ، ١٤٢١هـ .
- ٣٧- الدوسري ، شعيب بن عبد الحميد . (منسوب له) إمتاع السامر بتكملة متعة
الناظر : تحقيق محمد الحميد وعبد الرحمن الرويشد -٠ الرياض : دار الملك
عبد العزيز ، ١٤١٩هـ / ١٩٩٨م .
- ٣٨- السويداء ، عبد الرحمن بن زيد . الألف سنة الغامضة من تاريخ نجد -٠
الرياض: دار السويداء للنشر والتوزيع ، ١٤٢١هـ / ٢٠٠٠م .
- ٣٩- السيابي ، سالم بن حمود . إسعاف الأعيان في أنساب أهل عمان -٠ بيروت :
المكتب الإسلامي ، ١٣٨٤هـ / ١٩٦٤م .
- ٤٠- الشويعر ، محمد . نجد قبل ٢٥٠ عاماً -٠ الرياض : مكتبة النخيل ، ١٤١٢هـ /
١٩٩٢م .
- ٤١- العماري ، فضل . ابن مقرب وتاريخ الإمارة العيونية في بلاد البحرين -٠
الرياض : مكتبة التوبة .
- ٤٢- العمران ، عمران . ابن مقرب حياته وشعره ، الرياض ، ١٣٨٨هـ / ١٩٦٨م .
- ٤٣- فيسي ، وليام . الرياض المدينة القديمة : ترجمة عبدالعزيز بن صالح
الهلابي -٠ الرياض : مكتبة الملك عبدالعزيز العامة ، ١٤١٩هـ / ١٩٩٩م .
- ٤٤- كحالة ، عمر رضا . معجم المؤلفين -٠ بيروت : مؤسسة الرسالة ،
١٤١٤هـ / ١٩٩٣م

٤٥- الوشمي ، صالح بن سليمان . ولاية اليمامة دراسة في الحياة الاقتصادية والاجتماعية حتى نهاية القرن الثالث الهجري -٠ الرياض : مكتبة الملك عبدالعزيز العامة ، ١٤١٢هـ .

ثالثا : البحوث في المجالات العلمية :

٤٦- آل خليفة ، عبدالله بن خالد ، وأبا حسين ، علي بن عبدالرحمن . دولة العيونيين في البحرين، الكتاب السنوي الأول ، الأمانة العامة للمراكز والهيئات العلمية المهتمة بدراسات الخليج العربي والجزيرة العربية -٠ الرياض : دار الملك عبدالعزيز ، ١٤٠١هـ/١٩٨١م .

٤٧- الجاسر ، حمد . العرب في القرن السابع من كتاب مسالك الأبصار : تحقيق ونشر مجلة العرب ، المجلد ١٦ ، سنة ١٤٠٢هـ -٠ الرياض : دار اليمامة للبحث والترجمة والنشر .

٤٨- _____ . بنو عائد ، مجلة العرب ، المجلد الخامس .

٤٩- الحميدان ، عبداللطيف بن ناصر ، إمارة العصفوريين ودورها السياسي في تاريخ شرق الجزيرة العربية ، مجلة كلية الآداب ، جامعة البصرة ، ١٩٧٩م .

٥٠- _____ . التاريخ السياسي لإمارة الجبور في نجد وشرق الجزيرة العربية ، مجلة كلية الآداب ، جامعة البصرة ، ١٩٨٠م .

٥١- الشبل ، عبدالله بن يوسف . من مصادر تاريخ نجد: تاريخ ابن عباد : دراسة وتحقيق ، مجلة مركز البحوث -٠ الرياض: جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية ، العدد الثاني ، ١٤٠٤هـ، ص ٩٧ .